الفصل التاسع عشر

أرسطو والإسكندر

اللوقيـــون

ازدياد قوة مقدونيا :

نقبل الآن على عصر جديد ، عصر أرسطو ، وهو يختلف اختلافاً جوهريّا عن سابقه ، عصر أفلاطون ، من وجوه كثيرة على ما بينهما من شبه وتداخل . فالمسرح السياسى هنا مقدونى وليس هلينيًّا كما كان ؛ ويتطلب ذلك بعض الإيضاح .

يتبين من إلقاء نظرة على الخريطة أن مقدونيا قطر من أقطار البلقان ، يقع فى شمالى تساليا ، وشرقىّ الليريا ، وغربىّ طراقيا . ولا تظهر على الخريطة حدود فاصلة بين هذه الأقطار ، غير أن أسماءها المكتوبة بحروف ضخمة تدل على موقعها بالتقريب . ولعل هذه هى أفضل السبل للتعرف عليها . هذا إلى أن هذه الحدود ، أينما وجدت ، لم تكن ثابتة ، وكان ملوك مقدونيا يوسعون رقعة أراضيهم من وقت لآخر ، حتى شملت مقدونيا ، آخر الأمر ، خالكيديكى ، شبه الجزيرة ذات السيقان الثلاث (وهى صورة مصغرة من البلوبونيس) ، والواقعة فى الطرف الشمالى الغربى من بحر إيجة ، وهى منطقة أشبه بجزر هذا البحر منه بمقدونيا نفسها . ولم ينحدر سكان مقدونيا من سلالة بعينها ، إذ لم تكن هناك سلالة مقدونية ، وإنما كانوا خليطا من سلالات طراقية والليرية (ألبانية) . ولم تكن لغة المقدونيين اللغة الإغريقية . غير أنه من العسير أن نحدد طبيعة لغاتهم التى هى فرع من أسرة اللغات الهندية — الأوربية ، وإن اختلفت ، فيما يرجع ، عن الفرع الهلينى والفرع السلافى . وكانت اللهجات الطراقية وثيقة الصلة باللهجات الفريجية السائدة فى الجزء الشمالى الغربى من آسيا الصغرى

(جنوب بحر مرمرة) . وتتمثل اللهجات الاليرية الآن فى اللغة الألبانية[١] . لكن لما كان جنوب مقدونيا شديد القرب من تساليا وأبيروس ، رحل إليه اللاجئون الإغريق فى زمن مبكر ، كما هاجرت إليه جموع غفيرة من أرجوس (فى البلوبونيس) . وسرعان ما تسربت كلمات أجنبية إلى اللهجة الدورية ، لهجة المهاجرين . ونعتقد أنه كان يسهل على النسوة المترددات على السوق العامة فى أثينا أن يميزن عن سائر المواطنين الغرباء من الإغريق مقدونيي الأصل ، حتى ولو كانوا على قسط كبير من الثقافة .

وحكمت المقدونيين أسرة من الملوك بدأت فى رأى بعضهم بالملك كرانوس Caranos الأرجوسى (حوالى ٧٥٠) ، ووفقاً لرأى بعضهم الآخر بالملك بيردكاس الأول ، Perdiccas وهو أيضا من أصل أرجوسى (٧٠٠ — ٦٥٢) . ومعلوماتنا طفيفة عن تاريخ المقدونيين حتى عهد الملك السادس[٢] ، أمينتاس الأول Amyntas (٤٥٠—٤٩٨) . ولكن هذا الملك الذى حالف الفرس لم يلفت إليه الأنظار . وتعاقب الملوك . ولم تتغير الحال إلا بعد أن تولى العرش الملك الثانى والعشرون ، وهو فيليب الثانى المقدونى (٣٥٩ — ٣٣٦) . وكان ملوك مقدونيا إغريقاً ، ولكنهم تزوجوا من نساء مقدونيات ، فاختلط نسلهم الإغريقى مراراً بأنسال وطنية . ولم تتعلم أم فيليب المقدونية لغة الإغريق إلا فى سن متقدمة ، غير أن فيليب تعلم منذ نشأته تعليما إغريقياً . فلما آل إليه السلطان فى سنة ٣٦٠ ، كان ملماً بأحوال بلاد الإغريق كل إلمام : من فوضى سياسية تتخللها هدنات مزعزعة ، إلى محالفات تبرم وتلغى ، وتستبدل بها أخرى جديدة . فلم يكن هناك أمل فى السلم إلا إذا فرضه عاهل لديه قوة ساحقة . ووطد فيليب عزمه على أن يكون هو ذلك العاهل . وشهد أثناء مدة أسره فى طيبة أساليب عسكرية مبتكرة فلم يتقنها فحسب ، بل أدخل عليها أيضا تحسينات جديدة . وأنشأ جيشا محترفا درب به على الحركة والقتال فى تنظيم جديد ، وهو الفيلق المقدونى ، والذى كان يتألف من المشاة والفرسان ، الأولون فى القلب ، والآخرون فى الجناحين ، ويعملون جميعا متضامنين . ولم يكن من المستطاع بوجه عام مقاومة أساليب القتال

المقدونية ، التى ظلت أفضل أساليب حربية قروناً عديدة ومع بساطتها كان تطبيقها يتطلب مواهب غير عادية . وكانت قيمتها منوطة إلى حد كبير بما يظهره القائد من نبوغ ، فى تدريب جنوده تدريباً وئيداً مستمراً فى ميادين التدريب ، وبعدئذ فى سرعة ارتجال الخطط التى يستلزمها الموقف فى ميدان القتال . واستطاع فيليب أن يقضى على المنازعات القبلية الناشبة بين سكان الجبال ، وأنشأ اتحادا قومياً . وقد توافرت لديه الفرص لتدريب جيشه فى منطقته ، وفى جنوب الدانوب وغرب البحر الأسود ، وأخذ بالتدريج يوسع رقعة مملكته ويوطد دعائمها . وبعد ذلك تأهب للقضاء على الفوضى الضاربة أطنابها بين الإغريق . وليس هناك ما يدعو إلى سرد قصة حملاته .

وما الأثر الذى أحدثه نهوض مقدونيا فى نفوس الإغريق والأثينيين خاصة ؟ ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن فيليب ، برغم تربيته ، لم يكن فى نظرهم إغريقيا قحاً . وهو إن لم يكن متبرباً . كان أجنبياً على أى حال . وقد أخذت أطماعه تزداد وضوحاً على مرّ السنين . فهل يذعن الإغريق ، وهم الذين ضاقوا ذرعا بجميع الزعماء إلى ذلك الحين . لسيادة رجل دخيل[٣] ؟ وكان فى أثينا حزبان كبيران ، أحدهما يتزعمه أيسوقراط وهو شيخ (٤٣٦ — ٣٣٨) ، وفى وسعنا أن نسميه فى لغتنا الحديثة بحزب المتعاونين . وأما الحزب الآخر فكان موجه سياسته هو ديموستين ، أعظم الخطباء الآتيكيين (٣٨٥ — ٣٢٢) ، وهو الذى ألقى خطبا شعواء ندد فيها بأهداف فيليب الوبيلية ودافع عن حرية بلاد الإغريق[٤] . واقترح ديموستين فى الخطبة الرابعة من هذه الخطب العظيمة طلب النجدة من الفرس لحماية استقلال الإغريق من أطماع مقدونيا الاستعمارية . وقد أفسدت فارس الجو بتداخلها فى الحروب الأهلية المستمرة التى نشرت الخراب فى العالم الإغريقى زهاء قرن من الزمان ، فكانت على استعداد دائما للزج بنفسها فى شئونه ، بل إن كلا من الفريقين المتطاحنين على الزعامة لم يتورع عن قبول الرشوة من الفرس ، والتحالف مع عدو البلاد لتحقيق أغراضه الخاصة . ولهذا اتسمت الحروب الأهلية اليونانية دائماً بطابع دولى . ولكن الموقف تغير باعتلاء فيليب العرش ،

فظهرت حينئذ فى الأفق دولتان أجنبيتان قويتان ، هما فارس ومقدونيا . وكان يسبق الحروب بين الإغريق ويصحبها قدر كبير من الدعاية ، والدسائس السياسية ، والتجسس والخيانة . ولم يكن فى وسع الإغريق الدفاع عن كيانهم بدون التزود بالسلاح الأجنبى . ودار على الألسنة السؤال التالى : أى العدوين أو أى الوصيين المنتظرين ، كان أكثر خطرا : مقدونيا نصف الإغريقية ، أم فارس ، الدولة الشرقية قلباً وقالبا ؟

ولعل ديموستين وأنصاره كانوا كما زعموا أكثر وطنية من غيرهم . وقد أدرك الحزبان أن الحاجة ماسة إلى اتحاد قومى . وذهب حزب المتعاونين إلى أن الاتحاد مستحيل ، أو لا سبيل إلى قيامه إلا تحت زعامة مقدونيا . وأما الحزب الآخر فقد جاهد فى سبيل الاستقلال القومى والاتحاد . وإنه ليبدو لنا الآن ، مع بعد الزمن ، أن حزب المتعاونين كان على صواب ، فلم يكن هناك أمل أو احتمال للتوفيق بين الاستقلال القومى والاتحاد القومى . وغنى عن الذكر أن فيليب لم يعتبر نفسه غازيا . بل حاميا للاتحاد الإغريقى والثقافة اليونانية من الفوضى والانهيار .

وفى معارك كثيرة ، كانت آخرها معركة خيرونيا (فى بيوشيا) سنة ٣٣٨ ، دحر فيليب خصومه بفضل جيوشه المدربة تدريبا حسنا . وكانت آخر مؤلفات أيسوقراط رسالته التى هنأ فيها فيليب بانتصاره فى تلك الموقعة ، وهو انتصار حظى هو بنصيب فيه ، لأنه كان بمثابة انتصار له على ديموستين . وتوفى أيسوقراط بعد ذلك بأيام قلائل . قرير العين ، بالغاً من العمر حوالى مائة سنة . وكان ديموستين قد اشترك فى معركة خيرونيا ، وعاش بعدها ستة عشر عاما ، لقى فيها من صروف الدهر ألوانا . ثم التجأ آخر الأمر إلى معهد بوسيدون بجزيرة كالوريا (فى الخليج السارونى قبالة ساحل أرجوليس) حيث انتحر فى سنة ٣٢٢.

ولنعد إلى خيرونيا فى سنة ٣٣٨ . إن السلم التى أعقبها أفضت إلى قيام الحلف الهلينى الذى اشتركت فيه جميع الدويلات الإغريقية (ما عدا إسبرطة) . وكان فيليب زعيمه وحامى ذماره . ولم يلبث فيليب طويلا حتى بدأ عملياته الحربية

فى آسيا الصغرى لتحرير المستعمرات الإغريقية من ربقة الحكم الفارسى . لكن هذه العمليات توقفت باغتياله فى سنة ٣٣٦ ، وهو فى السابعة والأربعين . بعد حكم استمر أربعة وعشرين عاما . وخلفه ابنه ، الإسكندر الثالث ، وهو المعروف بالإسكندر الأكبر . وكان فيليب هو منشئ قوة مقدونيا . والرجل الذى مهد للإسكندر القيام بمخاطراته وإحراز انتصاراته . وكان فيه كثير من صفات الإسكندر (مثال ذلك شغفه بالعلم والأدب) ، غير أن هذه الصفات طغى عليها انغماسه فى الشهوات ، وتجرده من الضمير ، وكان مصرعه فيما يرجح نتيجة للفساد الذى أحاط به[٥] .

وكانت خيرونيا هى خاتمة استقلال بلاد الإغريق ، ومن ثم فطابع هذه الفترة ، وهى عصر أرسطو ، هو تدهور بلاد الإغريق وانهيارها السياسى ، وفيها نشهد احتضار الأمة العظيمة التى يدين لها العالم بالمثل الديمقراطية ، وهى من أنفس مقتنياته ، والتى لقيت حتفها ، وهى تجاهد فى سبيل تحقيقها . بيد أن الروح الهلينية روح خالدة ، فقد ابتكرت آثاراً رائعة حتى بعد ضياع حريتها .

حياة أرسطو :

خالكيديكى أشبه بجزيرة فى شمال البحر الإيجى منها بجزء من مقدونيا ، فخطوط مواصلاتها الرئيسية بحرية ، كشأنها فى الجزر الأخرى ، وقد استعمر شبه الجزيرة منذ القدم مهاجرون إغريق وفدوا من خالكيس[٦] (ومن هنا جاءت التسمية خالكيديكى) . واصطبغت حضارتها الإغريقية الأولى بالصبغة الأيونية ، ونشأت علاقاتها ، أول ما نشأت ، مع المستعمرات الأيونية الأخرى فى بحر إيجه وساحل آسيا الصغرى . واشتركت خالكيديكى فى شتى الأحلاف التى تألفت للدفاع المشترك . وكانت فارس ومقدونيا هما ألدّ أعدائها . ولما كانت متاخمة لمقدونيا بل جزءاً طبيعيًّا من أراضيها ، فلم يكن هناك مناص من أن تثير أطماعها . قصارى القول أن فيليب غزاها آخر الأمر وضمها إلى ملكه . وأحل المحاربين القدماء المقدونيين مكان المستعمرين الإغريق .

فى هذه المنطقة ولد أرسطو فى سنة ٣٨٤ بمدينة أسطاغيرا ، وهى تقع فى شمال الساق الكائنة فى أقصى الشرق ، وهى شبه جزيرة جبل آثوس ، أو الجبل المقدس. وعندما ولد أرسطو كانت خالكيديكى ، أو على الأقل المنطقة الواقعة فى أقصى الشرق ، لا تزال مستقلة وأيونية الثقافة . وعلى أى حال ، فقد ظلت الثقافة العليا أيونية حتى بعد الغزو المقدونى . من الجائز إذن أن نسمى أرسطو بالفيلسوف الأيونى ، وإن كان من الصواب أيضا ، كما سنرى ، أن نلقبه بالفيلسوف المقدونى .

ولا نعرف عن أمه شيئاً سوى اسمها ، فايستس . وكان أبوه نيقوماخوس من أسرة طبية ، وكان طبيبا لأمينتاس الثانى ، ملك مقدونيا (٣٩٣ — ٣٧٠) . ثم رحل من اسطاغيرا إلى عاصمة مقدونيا فى ذلك الوقت (ولم تكن بللا قد صارت بعد عاصمة) . تلقى الصبى أرسطو تعليمه إذن فى مقدونيا ، ولا بد أنه ألم بطرف من حياة القصور . وتأثر فى شرخ شبابه بثلاثة ألوان من الثقافة : الأيونية ، والمقدونية ، والطبية . وكانت الأولى والثالثة خير ثقافتين يتزود بهما من يعد نفسه لأن يكون عالما .

وفى سن السابعة عشرة أوفده أبوه إلى أثينا ليتم تعليمه (وكان هذا تصرفا طبيعياً يروق محبى الإغريق بمقدونيا والأيونيين بخالكيديكى) . وقضى أرسطو العشرين عاماً التالية فى أثينا (٣٦٧ — ٣٤٧) . وكثيراً ما يقال فى ذلك إن أرسطو التحق بالأكاديمية فى سنة ٣٦٧ وتتلمذ لأفلاطون عشرين عاما أى إلى وفاة أفلاطون . ولكن هذا خطأ بالتأكيد ، فقد تتلمذ أرسطو لأفلاطون فى مستهل إقامته فى أثينا ، وأعجب أفلاطون بنضجه المبكر ، ونشاطه الوثاب ، ولقبه بالقارئ أو العقل (anagnostes, nus) . ومن المرجح إزاء ما نعرفه عن رغبته فى التحصيل أنه اختلف إلى أساتذة آخرين مثل إيسوقراط ، وشارك الأثينيين قطعا فى دروس البلاغة والسياسة التى ألقيت فى السوق العامة أو فى الأريوباجوس ، واستمع بلا ريب إلى بعض خطب ديموستين[٧] . ومن المستبعد أن رجلا مبتكراً متقد النشاط كأرسطو يبقى متتلمذاً لأفلاطون عشرين عاما . وإنما التحق أرسطو بالأكاديمية واختلف إليها الفينة بعد الفينة . وكان أرسطو ، كما يتبين من الشذرات

الباقية من مؤلفاته المفقودة، أفلاطونى المذهب، حتى وفاة أفلاطون على أقل تقدير، مع تحفظات تزايدت باطراد. وقد وافقت عضويته الشطر الثانى من حياة الأكاديمية وكانت قد تخلت عن خصائصها السقراطية وتشبعت بالمذهب الأفلاطونى، أى أصبحت غير سقراطية. وأحيانا حدثت مشاحنات بين الأستاذ الشيخ وتلميذه النابه. وينبغى ألا ننسى أن فارق السن بينهما كان أربعة وأربعين عاما، وهو فارق كبير جداً. فلم يسبقه أفلاطون بجيل واحد بل بجيلين. وانسحب أرسطو من الأكاديمية، وفقا لرواية ديوجينيس اللائرسى [٨]، وأفلاطون لا يزال على قيد الحياة، ومن ثم نشأت العبارة التى تنسب إلى أفلاطون حيث يقول: «إن أرسطو يزدرينى مثلما يرفس المهر أمه التى ولدته». ونحن لا نستبعد صحة العبارة ولا الظرف الذى قيلت فيه [٩]. ومن المستحيل طبعا أن نعرف متى تخلى أرسطو عن الأفلاطونية حتى لو كانت مؤلفاته كلها بين أيدينا، وكانت مؤرخة، فالحدود التى تفصل بين الأفلاطونية وغير الأفلاطونية ليست واضحة وضوحاً كافيا.

ويتلخص رأيى فى الآتى: قضى أرسطو عشرين سنة فى الدراسة بأثينا، وكان فى السنوات الأولى طالباً منتظما بالأكاديمية، ثم أصبح فيما بعد طالب دراسات عليا، أو خريجا، وصديقاً لأستاذه وغيره من أعضاء الأكاديمية. كانت الأكاديمية المركز الرئيسى الذى يلقى فيه أستاذه القديم وطائفة من رجال على شاكلته ويستطيع أن يناقشهم فى المسائل الفلسفية والعلمية. ولم تقتض العضوية فى الأكاديمية (كما هو الآن) إجراء رسميا، بل كانت أمراً لا كلفة فيه، فكان أى طالب قديم، نابه الذكر كأرسطو، يقابل بالترحاب دائما.

وبعد موت أفلاطون اختير اسبيوسيبس، ابن أخته، رئيسا للمدرسة (scholarches) فأدارها ثمانى سنوات (٣٤٧/٣٤٧ — ٣٣٩). فهل أغضب هذا الاختيار بقية أعضاء الأكاديمية. ومهما يكن من شىء، فقد قرر أرسطو هو وصديقه كسنوكراتيس أن يتركاها، واستجابا لدعوة زميلهما فى الدراسة، هرمياس، حاكم أتارنيوس.

وينبغى أن نسرد هنا قصة هرمياس لأنها توضح ما اتسمت به حياة ذلك

العصر من تنوع ، وتعقيد ، وعدم استقرار . كان الخصيّ هرمياس ، وكان فى بدء حياته صرّافاً ، خبيرا بالشئون المالية فجمع ثروة طائلة ، وحظى بنفوذ واسع ، واقتنى أملاكا شاسعة فى إقليم طروادة (شمال غرب ميسيا) ، وعرف بطاغية أتارنيوس (فى مواجهة لسبوس) . وإلى هنا فليس فى قصته شىء خارج عن المألوف ، فثيلاتها تحدث فى كل مكان . ولكن سيرته التالية أكثر دلالة على العصر الذى عاش فيه . كان هرمياس طالباً فى الأكاديمية (هل يتفق هذا مع السمسرة ؟ ولم لا ؟ فكثير من رجال المال متخرجون فى هارفارد) . وظل من أشد المعجبين بأفلاطون . ومن المحتمل أنه سأله النصيحة والمعونة فى تصريف شئون حكومته . أو لم يكن أفلاطون أكبر حجة فى السياسة ؟ وكان من بين أعوان هرمياس زميلان من خريجى الأكاديمية ، وهما إراسطوس وكورسكوس ، وأصلهما من سكبسيس (إحدى مدن إقليم طروادة) . وقد سعوا لإقامة حكومة أفضل تحت إشراف أفلاطون[١٠] . وأنشأوا بالفعل مدرسة جديدة (ولنسمها فرعاً من فروع الأكاديمية) فى أسوس[١١] . وبعد اختيار أسبيوسبوس رئيسا للأكاديمية ، التحق أرسطو وكسنوكراتيس بمدرسة أسوس ، ولحق بهما فيما بعد كاليستنيس وثيوفراستوس . وقضى أرسطو فى أسوس ثلاث سنوات (٣٤٧ — ٣٤٤) فيها اتصل الود بينه وبين هرمياس وتزوج من بيثياس ، وهى ابنة أخ هرمياس أو ابنة أخته ، كان هرمياس قد تبناها . ويحتمل أن أرسطو هو الذى توسط فى المفاوضات التى دارت بين هرمياس وفيليب لعقد محالفة مع مقدونيا . ولما كانت ميسيا داخلة فى نطاق السيادة الفارسية ، فقد اعتبر الفرس مفاوضات هرمياس مسلكا ينطوى على الخيانة . ودعا منتور ، وهو قائد رودسى مرتزق فى خدمة الفرس ، دعا هرمياس إلى اجتماع ثم قبض عليه وسلمه للملك الأكبر . واستجوبه الفرس ونكلوا به ليعترف بحقيقة صلاته بفيليب ، ولكنه لاذ بالصمت ، كما تكهن ديموستين ، ولم يبح بالسر أو بأسماء شركائه لأرتخشارشا ملك الفرس (٣٥٩ — ٣٣٨) . وقد تأثر الملك بشهامة هرمياس ، وأراد أن يمهله ويكسب صداقته ، ولكن مستشاريه نصحوه بعدم التسامح . وعندئذ سأل

هرمياس عن مطلبه الأخير فأجابه « أود أن يعلم أصدقائى أننى لم آت شيئا أخجل منه ، أو غير لائق بمقام الفلسفة » . وصلب هرمياس فى سوسا فى سنة ٣٤٤ . وأقام أرسطو أثراً فى دلفى تخليداً لذكرى صديقه الذى مات ميتة الأبطال ، ونظم فيه أربعة أبيات ، كما ألف قصيدة طويلة تمجيداً له ، وهى نشيد للفضيلة ، أو نشيد ابتهاج أى ترتيل دينى ، القصد منه عبادة هرمياس . ولا تزال القصيدة (وهى من ١٦ بيتا) والنقش موجودين وهما يعطياننا فكرة لا بأس بها عن أرسطو الشاعر . وكان أرسطو يتردد أحيانا أثناء إقامته بأسوس ، على ميتيلينى (فى لسبوس) وهى قريبة ، وهى مسقط رأس صديقه الجديد ، ثيوفراسطوس . وأفاد أرسطو من هذه السنوات الثلاث فى أسوس كل الإفادة ، إذ استطاع خلالها أن يقوم بمشاهدات كثيرة (فى علم الحيوان مثلا) ، وأن يضع فلسفته الخاصة . لقد وجد أرسطو فى أسوس المكان الملائم له .

واحتاج فيليب إلى معلم لابنه الإسكندر . ومن الجائز أن هرمياس زكى أرسطو لدى الملك . وعلى أى حال فقد عرف فيليب مواهبه وسيطا فى المفاوضات ورئيسا لمدرسة أسوس . وقبل أرسطو العرض الملكى ، وتوجه إلى بللا ، مقر حكومة فيليب . واستمر أرسطو يثقف الإسكندر من ٣٤٣ إلى ٣٤٠ ، عندما اضطر (وكانت سنه لا تزيد على ستة عشر عاما) إلى أن ينوب عن أبيه (أثناء غيابه فى الحملات الحربية) فى حكم المملكة . ولسنا نعرف على وجه التحديد أين عاش أرسطو من ٣٤٠ إلى ٣٣٥ ، سوى أنه كان يقيم فى الأراضى المقدونية . ولعله ظل مقيما فى بللا ضيفاً مكرما ، أو لعله عاد إلى إسطاغيرا . وعلى أى حال فقد أتيحت له فرص طيبة لصياغة أفكاره الجديدة . وقد حمله اضطلاعه بالتعليم على أن يصوغ علمه وفلسفته فى عبارات واضحة سهلة جداً . وعندما كانت ظروف الأمير لا تسمح له بالاختلاف إلى دروس إضافية ، كان معلمه يجد متسعا من الوقت للتأمل العميق .

ولما خلف الأمير أباه ، بقى أرسطو إلى جانبه مستشاراً له وصديقا ، واستمر كذلك إلى أن زجّ بكالستينس فى السجن وأعدم . وبعد ارتقاء الإسكندر العرش

مباشرة ، وأثناء إخماده الثورات الناشبة فى البلقان وبلاد الإغريق ، عاد أرسطو إلى أثينا لتحقيق هدفه الأكبر . ألا وهو إنشاء مدرسة جديدة ومركز للبحث ، وهو اللوقيون (٣٣٥) .

وعندما خبا نجم الإسكندر فى ٣٢٣ بعد تألقه فترة قصيرة بهر فيها الأبصار ، استأنفت الأحزاب المناوئة لمقدونيا نشاطها المعادى . وتعرضت حياة أرسطو للخطر من جراء رعاية الملك للوقيون ، وتذكر خصومه أنه كتب نشيداً يمجد فيه هرمياس ، فاتهموه بالإلحاد . ولم يشأ أرسطو أن تعود أثينا إلى ارتكاب الجريمة التى لا تغتفر يوم أن قضت على سقراط بالموت ، فآثر أن يلتجئ إلى خالكيس (وهى قاعدة خالكيديكى ، مسقط رأسه) . وهناك قضى نحبه بعد مرض لم يمهله إلا بضعة أشهر فى ٣٢٢ (وهى نفس السنة التى انتحر فيها ديموستين) .

تزوج أرسطو مرتين ، وكانت زوجته الأولى هى بيثياس ، وأصلها من أسوس ، ومنها أنجب ابنة سميت باسم أمها . وأنجبت له هربوللیس ، زوجته الثانية ، ابنا ، سمى باسم حميها ، نيقوماخوس . وقد خلد أرسطو ذكره بأن أهداه كتابه فى الأخلاق (وهو المبحث الأخلاقى الوحيد الذى لا يشك فى نسبته إلى أرسطو).

ويقول ديوجينيس اللائرسى : كان أرسطو ألثغ ، نحيل الساقين ، ضيق العينين ، يلفت النظر بزيه ، وخاتميه ، وقصة شعره[١٢] . وعلينا أن نقنع بهذه الأوصاف الطفيفة ، إذ لم يصل إلينا أى تمثال له . إن فرانز ستودنيشكا ، فقيه اللغة النمسوى ، يذهب إلى أن الرأس الرخامى المودع بمتحف الفن التاريخى فى فينا هو صورة حقيقية لأرسطو ، إلا أن حجته غير مقنعة ولا قيمة لها[١٣] ، فهو يقول إن هذا الرأس الموجود فى فينا يوحى بشبه بملانختون وهلمهولتز ، ولكن ذلك نفسه لا ينهض دليلا على أنه يمثل أرسطو !

وما نعرفه عن حياة أرسطو الروحية أكثر مما نعرفه عن مظهره الخارجى ، بفضل مؤلفاته الغزيرة ووصيته التى نشرها ديوجينيس اللائرسى[١٤] . ويتبين من هذه الوصية أن أرسطو كان رب أسرة حسن العشرة ، كريماً مع زوجتيه ، شديد العناية بأبنائه وخدمه . فهى وثيقة تفيض بالمعانى الإنسانية الرفيعة .

مؤلفات أرسطو الضائعة . مؤلفاته الأفلاطونية الأولى :

يمكننا أن نقسم مؤلفات أرسطو إلى ثلاثة أقسام :

(١) الأولى وهى التى ألفها فى فترة عضويته بالأكاديمية[١٥] .

(٢) مصنفات علمية كتبها أيام اللوقيون على الأرجح . (٣) طائفة من البحوث أعدها فى السنوات التى اشتغل خلالها بالتعليم فى أسوس وبللا ، وأثينا .

وجميع المؤلفات التى وصلت إلينا كاملة هى من القسم الثالث ، ما عدا مؤلفاً واحداً من القسم الثانى ، وهو « الدستور الأثينى » .

لدينا مؤلفات القسم الأول — وإن كانت قد ضاعت — شذرات كافية ومقتبسات واردة فى الكتب القديمة تشف عن قيمة محتوياتها[١٦] . والواقع أن هذه المؤلفات لم تضع بسرعة ، بل ظل الجانب الأكبر من شهرة أرسطو قائماً عليها عدة أجيال . ولم تكتب هذه المؤلفات الأولى لخاصة التلاميذ[١٧] ، بل للجمهور المثقف . وهى مكتوبة فى شكل محاورات ، وهو الشكل الأثير لدى أفلاطون ، وتتمثل فيها بوجه عام تعاليم الأكاديمية تمثلاً صادقا . وتمت بعض هذه المؤلفات بالصلة إلى محاورات أفلاطونية بعينها لا إلى فلسفة أفلاطون بوجه عام فحسب ، بل إلى محاورات أفلاطونية . فمحاورة يوديموس ، مثلا ، مأخوذة عن فيدون وجريللاوس عن جورجياس ، وكتبه فى « العدالة » مستقاة من « الجمهورية » ، والبروتربتكوس من يوثيديموس .

ولنبحث الآن فى ثلاثة منها وهى يوديموس و بروتربتكوس و الفلسفة .

فاليوديموس محاورة عن خلود الروح ، سميت كذلك نسبة إلى يوديموس القبرصى[١٨] ، صديق أرسطو ، الذى قتل فى سنة ٣٥٤ . وعندما نرثى صديقا نحبه ، لا نملك إلا أن نتساءل إن كان فناء الجسد معناه الفناء الأبدى . ويأخذ أرسطو بنظرية أفلاطون القائلة بأن روح الإنسان تهبط من السماء ثم تصعد إليها ثانية عندما تتحرر من إسار البدن . وأما البروتربتكس[١٩] (الحض) ، فهى

رسالة (لا حوار) موجهة إلى ثيميسون ، أحد أمراء قبرص ، يحثه فيها على دراسة الفلسفة والنظر إلى الحياة بعين فلسفية . فجميع ما فى الحياة من نقص يستكمل فى عالم غير المحسوس . وما الموت سوى فرار إلى حياة أسمى . وكون الروح سجينة البدن هو مصدر جميع متاعبنا وآلامنا . فواجب الفيلسوف أن يتخلص بقدر الإمكان من المشكلات الدنيوية ، فهى تعرقل عودته إلى الله . وهناك أوجه شبه كثيرة بين البروتر بتكوس والأبينوميس ، مما يدل على أن مؤلفيهما نهلا من معين أفلاطونى واحد ، أو أن أحدهما نقل عن الآخر [٢٠] . وتثير البروتر بتكوس بالذات اهتمامنا نظراً لما أصابته من شهرة واسعة . فقد ترجمها شيشرون إلى اللاتينية ترجمة مضمون بعنوان هورتنسيوس [٢١] ، تأثر بها يامبليخوس (النصف الأول من القرن الرابع) وجوليان المرتدّ (النصف الثانى من القرن الرابع) . وأثرت أعمق الأثر فى نفس القديس أوغسطين (النصف الأول من القرن الخامس) ، وقد قرأها وهو فى سن التاسعة عشرة ، فكانت دون غيرها هى التى أثارت فيه الحنين إلى دراسة الفلسفة [٢٢] . أو ليس من حظ أرسطو الفريد أن تكون مؤلفات شبابه هى مصدر إلهام القديس أوغسطين ؟ وجدير بالملاحظة ما بينهما من فارق فى الزمن ، لا يقل عن ثمانية قرون ، واختلافهما الشديد فى الاتجاه ، فقد اتجه أرسطو نحو العلم ، وأوغسطين نحو المسيح .

وأضخم مؤلفات أرسطو التى لم تصلنا ، كما يتبين من الشذرات الباقية ، هو مبحثه فى « الفلسفة » ، وهو يقع فى ثلاثة كتب . ويشرح أرسطو فى الكتاب الأول نظريته عن أزلية المذاهب [٢٣] ، بادئاً بآراء الحكماء السبعة وما ورد فى نقوش دلفى القديمة (مثال ذلك ، « اعرف نفسك ») . وفى الكتاب الثانى ينتقد أرسطو نظرية المثل الأفلاطونية . وفى الكتاب الثالث يلخص نظريته عن ألوهية الكواكب . وفى الكتاب الأخير يذهب أرسطو إلى أن للنفس حركة تلقائية أزلية [٢٤] ، كالأجرام السماوية التى لكل منها إرادته الخاصة . وهكذا يستمر فى الانحراف الغريب الذى هو فى محاورتى « تيماوس » و أبينوميس حيث يُتخذ من دوران الأجرام السماوية المنتظم دليلا على أنها عقول إلهية . ويبدو أن أرسطو

خطرت له ، أثناء كتابة هذا الحوار ، فكرة أن الجوهر الخامس للسماء (أو الأثير) هو المادة التى تتركب منها النفس[٢٥] . ولكننى أجد أن من العسير علىّ أن أفهم ذلك ، إذ كيف يسوّى أرسطو بين الكواكب بعد أن نسب إليها صفة الألوهية لانتظام دورانها ، وبين النفوس البشرية ، التى لا يستطيع أحد أن يتكهن بحركاتها ؟ لعله تنكب طريق الصواب ، متأثراً بفكرة الآلهة التى نسبها إلى الكواكب والنفوس سواء بسواء . وتشبه فلسفته الكونية فى هذا المبحث الفلسفة فى التيماوس ، مع فارق هام : فالألوهية ليست كما فهمها أفلاطون متعالية على الكون ، بل هى ملمرسة فى الأجرام السماوية . فليس المصدر الأعظم للحكمة هو التأمل فى الصور المجردة ، بل التأمل فى حركات النجوم والكواكب .

وقد استمد أرسطو إيمانه بوجود الله من مصدرين : مقدرة النفس على التنبؤ (كما تظهر فى الأحلام) ، ومنظر السماوات المرصعة بالنجوم[٢٦] . ولا ريب فى أن تأييد أرسطو لمذهب ألوهية الكواكب ساهم مساهمة قوية فى رواجه فى العصر الهلنستى : وقد لخص بيجر ذلك تلخيصاً موفقاً رائعاً بقوله :

« إن قيام عبادة الكواكب التى لاتحدها أرض أو أمة بل تسطع على جميع شعوب الأرض ، وعبادة الإله المتعالى المتربع فوقها على عرشه ، هو فاتحة عصر العالمية فى الدين والفلسفة . وعلى صهوة هذه الموجة الأخيرة تدفقت الثقافة الآتيكية فى بحر الأمم الهلنسية[٢٧] .

فلسفة أرسطو الأولى هذه مستقلة عن فلسفة أفلاطون وإن لم تستقل عنها كثيرا . فلا يزال جوهر فلسفته الميتافيزيقية أفلاطونياً (فيما عدا إنكاره لمذهب أفلاطون فى المثال) ، ومتأثراً بأفكار كلدانية وإيرانية كانت رائجة بين جدران الأكاديمية . وليس فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة ، إذ كان تدريسه فى أسوس وبللا قد وجه تفكيره وجهة جديدة ، فشرع ينظم معلوماته فى المنطق والرياضة والفلك والتاريخ الطبيعى ، وسلم مؤقتاً بفلسفة أفلاطون الميتافيزيقية على علاتها . وموقفه فى ذلك شديد الشبه بالعالم الحديث الذى يقوم ببحوثه دون أن يحاول استقصاء المعتقدات والعادات الدينية التى هى جزء جوهرى من تقاليد أسرته .

والواقع أن تأليف هذه الكتب الأولى أقل إثارة للدهشة . فكونها مختلفة اختلافا جوهريًّا عن تلك التى ألفها فى سنى نضجه أمر لا يحتاج إلى تفسير . كان أرسطو رجلاً ذا عبقرية خارقة ، بيد أن العبقرية نفسها يلزمها أن تنمو ، ومن العبث أن نتوقع نضجها قبل الأوان . فغالبا ما يبلغ الأطفال النوابغ فى وقت مبكر جدًّا مستوى معينا من النضج ، وبعدئذ يعجزون عن الارتفاع كثيراً عن هذا المستوى . ولكن الرجل ذا العبقرية الحقة أبطأ فى نموه من سائر الناس . فكثير من العلماء استهلوا حياتهم بمؤلفات أدبية أو فلسفية أنكروها فيما بعد أو أغفلوها فطوتها يد النسيان[٢٨] . وذلك أمر طبيعى ، وأشبه به ماحدث لرجل ظل متأثرا بنظريات الأكاديمية السخيفة عشرين عاما . وقد تخلص أرسطو من شعوذة التيمايوس برغبته فى طلب العلم ، وتنمية ملكة البحث الدقيق ، وممارسته التدريس فى أسوس وبللا ، وعلى الأخص ، بمذهبه العقلى واستقلاله الفكرى . فإذا راعينا شتى الظروف نجد أن حياة أرسطو تطورت تطورا عاديًّا ، لا شذوذ فيه ، وقد تخلص عقله من الأوهام الأفلاطونية بقدر نمو معارفه العلمية .

وما كنا لنحفل كثيراً بمؤلفاته الأولى لولا الأهمية التى أضفيت عليها خلال ثلاثة قرون أو أربعة ، واختفاؤها الغامض بعد ذلك . وكأن أرسطو ظل معروفاً عدة قرون ثم حل مكانه فجأة أرسطو آخر ، مختلف عنه كل الاختلاف . وما يثير حيرتى هو احتجاب أرسطو القديم . فلا بد إزاء ما أحرزته مؤلفاته من شهرة أنه كانت هناك نسخ كثيرة من كل كتاب منها ، فكيف اختفت كلها حتى إنه ليس لدينا نص كامل لواحد منها ؟ ذلك يوضح مرة أخرى ما يحف طريق انتقال المخطوطات من خطر . ولكن لماذا كان هذا الخطر فى حالة مؤلفات أرسطو الرائجة منه أشد فى حالة مؤلفات أرشميدس الفنية ؟ ليس فى وسعنا الإجابة عن هذا السؤال ، فحفظ المخطوطات أمر محفوف بالخطر مرهون بالظروف .

أرسطو الحيّ . مؤلفاته الباقية :

قد ينساق مؤرخ العلوم إلى القول بأن مؤلفات أرسطو الأفلاطونية قد ضاعت لأن مؤلفاته الأخيرة زحزحتها ثم محتها . ولئن قال ذلك فإنما يضرب مثلا سيئاً على حب الذات . فينبغى ألا ننسى أن الأوهام الأفلاطونية كانت لعدة قرون (ولا تزال حتى اليوم) أحب إلى جمهور الناس من الحقائق العلمية البحتة . إن اختفاء مؤلفات أرسطو الأولى نهائياً أمر يكتنفه الغموض الشديد ، وضياع مؤلفاته الأخيرة واكتشافها من جديد أشبه بالقصة الخيالية .

وإليك ما حدث . بعد موت أرسطو آلت أوراقه إلى صديقه وخلفه ثيوفراسطوس ، فأوصى هذا بها لا لخلفه فى اللوقيون ، كما كنا نتوقع ، بل لابن أخته نيليوس ، أحد مواطنى سكبسيس[٢٩] . ويبدو أن نيليوس لم يهتم بهذه المؤلفات ، ثم إن ورثته باعوا بعضها لبطلميوس فيلادلفوس (٢٨٥ — ٢٤٧) ، وكان ينشئ مكتبة الإسكندرية . وأخفى الورثة سائر المخطوطات فى كهف مخافة أن تقع فى يد ملكهم أتالوس البرغامى (٢٦٩ — ١٩٧) وكان هو أيضا قد شرع فى بناء مكتبة برغامة ، لينافس بها مكتبة الإسكندرية . وبعد مضى فترة من الزمن ، سمع أبلليكون التيوسى ، أثناء مروره ببلدة سكبسيس ، عن ذلك الكنز فاقتناه لمكتبته الخاصة فى أثينا . وكان أبلليكون هذا من المشائين وأحد جامعى الكتب الأثرياء ، ولا نعرف عنه سوى أنه مات قبيل حصار سلا لأثينا ونهبه إياها (٨٤ ق . م .) . واشترى سلا مخطوطات أرسطو ، أو اغتصبها ، وحملها معه إلى روما . وحدث بعد ذلك بقليل أن وقع لغوى إغريقى كنيته تيرانيون ، أسيرا فى يد لوكللوس ، فأحضره معه إلى روما حيث عهد إليه ترتيب كتب أبلليكون . وكان تيرانيون عالماً قديرا ، امتدحه كل من شيشرون واسطرابون ، وإن اقتصر جهده فيما يبدو على عمل قائمة بمخطوطات أرسطو أو كتابة وصف لها . ولئن كان قد شرع فى نشرها ، فإن عمله ذلك لم يتم على يديه . وقد اضطلع أندرونيكوس الرودسى (النصف الأول من القرن الأول ق . م .) بنشرها لأول مرة حوالى ذلك

الوقت . ولنسخته هذه أهمية جوهرية ، فجميع النسخ الأخرى مأخوذة عنها مباشرة أو غير مباشرة . ولا ينبغى أن نستخلص من ذلك أن مؤلفات أرسطو ظلت مجهولة إلى أن نشرها أندرونيكوس حوالى ٧٠ ق . م . فلا بد أنها كانت متداولة شفاهاً وكتابة فى اللوقيون . وأعتقد أن النسخة التى نشرها أندرونيكوس هى أول نسخة وصلت إلى الأجانب .

هذه القصة تمدنا بمعلومات طريفة تكشف عن سير التقدم الثقافى فى العصر الهلنستى ،كنشأة المكتبات فى الإسكندرية وبرغام وأثينا وروما .

والمؤلفات التى نشرها أندرونيكوس هى هى — على الأرجح — المؤلفات التى لدينا اليوم . ونكتفى الآن بإيراد قائمة موجزة بها ، مع قليل من الملاحظات . وسنتناول بعضها بالشرح المفصل فيما بعد. ونحن نوردها هنا بالترتيب الذى ألفه الناس كافة ، وكما هو الوارد ، على سبيل المثال ، فى طبعة بكر Bekker (١٨٣١) ، وفى الطبعة الإنجليزية لأرسطو[٣٠] .

المجلد الأول (ص ١—١٨٤) . الأورجانون Organon وفيه : المقولات . العبارة . التحليلات الأولى . التحليلات الثانية . الجدل تفنيد السفسطة .

المجلد الثانى (ص ١٨٤ — ٣٣٨) : الطبيعة .. السماء . الكون والفساد .

المجلد الثالث (ص ٣٣٨— ٤٨٦) : الآثار العلوية . النفس . الطبيعيات الصغرى[٣١] . العالم . الهواء .

المجلد الرابع : (ص ٤٨٦ — ٦٣٣) : تاريخ الحيوان .

المجلد الخامس (ص ٦٣٩— ٧٨٩) : أعضاء الحيوان ، حركته ، مشيه ، وتكوينه .

المجلد السادس (ص ٧٩١ — ٨٥٨) : اللون . السمعيات . الملامح . النبات . السماع غير الطبيعى . الآليات . الخيوط غير المنقطعة. مواقع الرياح . وأسماؤها . ميليوس . كسينوفون . جورجياس .

المجلد السابع (ص ٨٥٩ — ٩٦٧) : المعضلات .

المجلد الثامن (ص ٩٨٠— ١٠٩٣) : الميتافيزيقا أو ما بعد الطبيعة .

المجلد التاسع (ص ١٠٩٤ — ١٢٥١) : الأخلاق إلى نيقوماخوس . الأخلاق الكبرى . الأخلاق إلى يوديموس .

المجلد العاشر (ص ١٢٥٢ — ١٣٥٣) : السياسة . الاقتصاد . (ص ١ — ٦٩ ، طبعة أكاديمية برلين ، ١٩٠٣) . دستور الآثينيين .

المجلد الحادى عشر (ص ١٣٥٤ — ١٤٦٢) ؛ الخطابة . الخطابة إلى الإسكندر . الشعر .

وجميع هذه المؤلفات — باستثناء واحد — من القسم الثالث ، إذ أنها كتب مدرسية تحتوى على محاضرات ألقاها أرسطو أو غيره من الناس فى اللوقيون . والاستثناء هو « دستور الآثينيين » (المجلد العاشر) ، وهو الكتاب الوحيد الذى يمثل القسم الثانى المحتوى على دراسات عامة أعدها للوقيون . وكان أرسطو قد قام بدراسة مقارنة لـ ١٥٨ دستوراً إغريقيا ، أهمها على ما يرجح هو الدستور الآثينى ، ولم يصل إلينا سواه ، ويقع فى جزئين رئيسيين (١) التاريخ الدستورى من أقدم العصور حتى أيام أرسطو ، وكل مرحلة من مراحله يصفها المؤلف وصفاً لبقا واضحا ، (٢) وصف تحليلى للدستور الآثينى والحكومة الآثينية كما كانت حوالى سنة ٣٣٠ . ولانتقال هذا النص إلينا قصة غريبة . فحتى عام ١٧٩١ لم نكن نعرف عن دراسات أرسطو الدستورية سوى شذرات . لكن فى ذلك العام وجدت فى مصر بردية ، أودعت بالمتحف البريطانى ، ونشرها كنيون Kenyon ، وكانت تلك هى الطبعة الأولى للدستور الآثينى [٣٢] .

ومجموعة مؤلفات أرسطو موسوعة ضخمة فهى تشمل المنطق ، والميكانيكا ، والطبيعيات ، والفلك ، والظواهر الجوية ، والنبات ، والحيوان ، والنفس ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والسياسة ، والميتافيزيقا ، والأدب . . إلخ . وليس للرياضيات مبحث مطوّل ، ولكن توجد مناقشات كثيرة قيمة لموضوعات رياضية ، متناثرة فى شتى الكتب .

هل هذه المؤلفات صحيحة ؟ إن السؤال أعقد مما يبدو لأول وهلة ، ولا يمكن إجابته برمته . وقد ناقش الناشرون صحة كل كتاب على حدة ، غير أنهم

لم يتفقوا دائما فى النتائج . وأما عن مشكلة النص الحرفى — أى الكتابة الفعلية لكل نص — فمن المحتمل أن أرسطو لم يكتب هو نفسه من المؤلفات إلا قليلا ، بل إننا لا نستطيع أن نقول إن كل المؤلفات تمثل تعليمه ، فبعضها قد يمثل تعليم ثيوفراسطوس ، أو تعليم غيره من رجال اللوقيون . ولعل بعض النصوص التى لدينا تمثل آراء أرسطو وآراء غيره من المشائين ، وإذا كانت تمثل آراءه هو ، فليس يستتبع ذلك أنها تمثل كلماته نفسها ، اللهم إلا إذا كان طالب مجد قد كلف نفسه عناء تدوين كلام أستاذه حرفيًّا ، على الأقل فى النقط الجوهرية .

وباستثناء قليل من المؤلفات المتفق على أنها منحولة ، يبدو أن الرأى مجمع على أن الكتب التى تحمل اسم أرسطو تتضمن لب محاضراته . وقد دونت المخطوطات الأصلية (كما نشرها أندرونيكوس) نقلا عن مذكرات محاضراته (فى مراحل تطورها المختلفة) ، أو عن مذكرات كتبها المستمعون ، وراجعها (أو لم يراجعها) هو بنفسه . ومن الممكن تقليب هذا الرأى على وجوه لاحصر لها .

ولعل الأستاذ نفسه جمع جانباً من الأدلة المادية الخاصة ببعض الكتب ، لا سيما كتب علم الحيوان ، وجمع له مساعدوه وتلاميذه الجانب الآخر . ولن ينقص ذلك من حقه مؤلفا ، فليس المؤلف فى مثل هذه الأحوال هو وحده الذى يهتدى إلى الحقائق المتفرقة ، وإنما هو الذى يرتبها ويفسرها .

والترتيب الزمنى لمؤلفات أرسطو أمر بعيد كل البعد ، فبعضها دوّن ، إن لم يكن قد ألف ، فى أسوس أو مقدونيا ، وبعضها كتب أصلا فى اللوقيون . ومعظمها ثمرة تطور طويل ، وضعت أمهات مسائلها ، وكتبت ، على دفعات فيما يرجح . وأثبت الأستاذ بيجر أن هذا هو ما حدث فى حالة كتب الميتافيزيقا والأخلاق والسياسة . ويفهم ذلك بسهولة كل مؤلف ، وعلى الأخص كل معلم ذى خبرة طويلة . وفى وسع المرء أن يحدد تاريخ إتمام كتاب معين ، وأحياناً تاريخ بدايته ، غير أن من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، تحديد تواريخ فصوله المختلفة . فلو أن كتابين أحدهما تم تأليفه فى سنة ٢٠ ق . م . والثانى فى سنة ا ؛ ب فى سنتى ٢٠ ق . م . و ١٢ ق . م . فليس يستتبع ذلك أن الثانى كله أحدث من الأول ، بل قد يتضمن الأول إشارات إلى ما فى الثانى .

وكثير من الآراء التقليدية عن إنشاء أرسطو أو أسلوبه مشوبة بروح التعنت والخرافة كالآراء عن أفلاطون ، سواء بسواء ، فيما عدا أن الخرافات تطورت فى اتجاهين متضادين . فقد أجمع المتحذلقون الذين أعجبوا بأسلوب أفلاطون (وغالباً بدون إلمام باللغة الإغريقية كاف لتذوقه) على أن كتابة أرسطو ركيكة ، وأن أرسطو لا أسلوب له ، إلخ . وهنا نتبين نوعاً من الوهم الذى يسيطر فى كثير من الأحيان على عقول النقاد من أهل الأدب عند ما يتصدون للحكم على المؤلفات العلمية . والفرق الجوهرى بين المؤلفات العلمية والمؤلفات الأدبية ينصب على ارتباط المعنى بالأسلوب . فرجل العلوم أكثر اهتماما بالفكرة منه بطريقة التعبير عنها . ويكفيه أن يوفق فى شرح آرائه بوضوح ووصف ما حصل عليه من نتائج بدقة . وغالباً ما يقف جهده عند هذا الحد ، لأنه يضيق ذرعا بالمحسنات اللفظية ، على حين أن الأديب يبذل قصارى جهده للتعبير عن أفكاره بأسلوب أكثر طلاوة ولباقة ورشاقة واتزانا . وهناك نوع من الانعطاف الخفى بين ألفاظ الكتاب أو أسلوبه وبين مضمونه ، ففى الكتب العلمية يخضع اللفظ للمعنى ، بينما العكس هو الأمر الطبيعى فى المؤلفات الأدبية . فما إن يحس الناقد أن مضمون كتاب من الكتب بالغ الأهمية ، وأن الأسلوب بسيط مقتضب ، حتى يبادر إلى الحكم بأن المؤلف لا يحسن الكتابة . وقد يكون لحكمه أحيانا ما يبرره ، لأن كثيراً من الكتب العلمية ركيكة الأسلوب ، ولكنه غالباً ما يكون خاطئاً غير منصف . ولعجزه عن تذوّق جمال المعنى ونفوره من بساطة اللغة وجفافها ، يقرر أن الكتاب لا أسلوب له ، وأنه ليس من الأدب فى شىء . لكن مؤلفات أرسطو كتب علمية ومضمونها أهم بكثير من أسلوبها . وهذا الأسلوب ينم أحيانا عن بعض الإهمال ، ولكنه يتضمن من حين لآخر عبارات رائعة تكشف عن عبقرية الأستاذ (وقد يعرف الأسد من مخلبه Ex ungue leonem) . إننى أعتقد أن أرسطو كان حريصاً على أن يجيد الكتابة بقدر ما فى وسعه ، لأنه كان يقول الشعر [٣٣] ولم ينس قط الدروس التى تلقاها على يد أفلاطون . ولئن تكن بعض كتبه تنم عن التقصير وعدم الاكتراث ، فليس ذلك بسبب إهماله

بل لأن الفرصة أعوزته لصقلها كما كان يجب أن يفعل .

ولعل أحد الكتاب ذوى الأسلوب كان فى وسعه أن يصقل أسلوب كثير من الكتب التى تحمل اسم أرسطو . لكن هل كان فى وسعه أن يفعل ذلك إلا على حساب المعنى ، دون أن يسلبه قوته ، ويحرّفه تحريفاً يقلل من قيمته ؟ فنحن جميعا متفقون على أن الأسلوب والمعنى مرتبطان أحدهما بالآخر ارتباط الجسم بالروح ، بيد أن النقاد من أهل الأدب غالباً ما ينظرون إلى الأسلوب باعتباره هو الروح ، على حين أن روح الكتاب هى ما فيه من أفكار ، أى ما فيه من معنى . ومن المؤكد أن هذا الكلام يصدق على الكتب العلمية .

وينبغى التنبيه إلى أن لغة مؤلفات أرسطو لم تكن اللغة الأتيكية فى العصر الذهبى ، بل هى لغة اختلطت بها مصطلحات فنية وعبارات مختلفة الأصول . وقد يعتبر أرسطو أحد واضعى اللغة العامة الجديدة . ومصطلحاته العلمية مثيرة للإعجاب ، وإن لم تخل من الحشو ، ولكن ذلك كان أمراً لا مندوحة عنه فى زمنه . والواقع أن استبعاد المصطلحات غير الضرورية ، واستحداث مصطلحات جديدة ، هو أحد مظاهر التقدم العلمى . وليس وجه الغرابة فى أن كثيرا من المصطلحات عند أرسطو قد اندثرت ، بل فى أن كثيراً جداً منها لا يزال مستعملا فى لغاتنا الحديثة .

الطبعات ، التراجم ، الفهارس :

ليس الغرض من هذا الكتاب استعراض أسماء الكتب ووصفها ، ومع هذا فمن الضرورى أن نتكلم عن بعض الطبعات الأولى نظراً لأهميتها التاريخية ، وأن نلفت النظر إلى الطبعات الحديثة الأكثر صلاحية من غيرها للرجوع إليها .

عن أقدم الطبعات التى صدرت قبل سنة ١٥٠٠ ، ومعظمها باللاتينية ، ومشفوعة أو غير مشفوعة بشروح ابن رشد ، انظر كليس ، رقم ٨٢ — ٩٧ (شكل ٨٩) .

ومن أعظم الطبعات القديمة ، الطبعة الأصلية الإغريقية لمؤلفات أرسطو التى نشرها ألدوس مانوكيوس فى البندقية (١٤٩٥ — ١٤٩٨) ، وهى فى خمس

مجلدات من القطع الكبير (شكل ٩٠) . واحتدمت المنافسة بين طباعى بال وطباعى البندقية ، مما حدا بإرازموس ، وسيمون جرينايوس أن يعدّا طبعة جديدة لجميع مؤلفات أرسطو (مجلدان من القطع الكبير ، بال سنة ١٥٣١ ، شكل رقم ٩١ ، ٩٢) . وقد نشر فردريك سيلبورج (١٥٣٦ — ١٥٩٦) النص اليونانى ثانية ، وطبع فى فرانكفورت (١١ مجلد ، ١٥٨٤ — ١٥٨٧) . وظهرت أول طبعة مشفوعة بالترجمة اللاتينية فى ليون فى ١٥٩٠ .

وأهم طبعة حديثة هى التى أعدها أمانويل بكر (١٧٨٥ — ١٨٧١) ، ونشرتها أكاديمية برلين مع الترجمة اللاتينية (٥ مجلدات من القطع الصغير ، برلين ، ١٨٣١ — ١٨٧٠) . وقد اتبع ترقيم بكر فى الطبعات التالية جميعها تقريبا . وأعيد طبع النص اليونانى ، نشره بكر فى أكسفورد[٣٥] ، مع إضافة فهارس سيلبورج indices Sylburgiani (١١ مجلدا ، أكسفورد ، ١٨٣٧) . وأما طبعة ديدو اليونانية — اللاتينية فهى من وضع ف . ديبنر ، ى . ك . بوشماكر ، وإ . هيتز (٥ مجلدات ، باريس ، ١٨٤٨ — ١٨٧٤) .

وقد وقف جول بارثليمى سان هيلير (١٨٠٥ — ١٨٩٥) جانباً كبيراً من حياته على ترجمة مؤلفات أرسطو إلى الفرنسية (١٨٣٩ والسنوات التالية) . وهى جديرة بأن يستأنس بها كثيراً وإن كانت لا تساير الوقت الحاضر .

وقد ترجمت مؤلفات أرسطو إلى الإنجليزية تحت إشراف و . د . روس (١١ مجلد ، أكسفورد ، مطبعة كلارندون ، ١٩٠٨ — ١٩٣١) وقد أشرنا إلى محتويات تلك المجلدات آنفاً فى صفحة ١٦٢ — ١٦٣ .

وكثير من كتب أرسطو ميسور الحصول عليها باللغة اليونانية مع الترجمة الإنجليزية فى مجموعة لويب الكلاسيكية Loeb Classical Library ، مثال ذلك « أعضاء الحيوان وحركته وسيره » (١٩٣٧) مجلة Isis ، عدد ٢٩ ص ٢٠٥ (١٩٣٨) وعدد ٣٠ ، ص ٣٢٢ (١٩٣٩) ، و « السماء » (١٩٣٩) مجلة Isis ، عدد ٣٢ ، ص ١٣٦ (١٩٤٧ — ١٩٤٩) ، و « تكوين الحيوان » (١٩٤٣) مجلة Isis ، عدد ٣٥ ، ص ١٨١ (١٩٤٤) .

والترجمة الإنجليزية الموجودة فى مجلدات أكسفورد وسلسلة لويب ترجمة حديثة مفيدة ، ولكن التعليقات عليها غير وافية . والحاجة ماسة إلى ترجمة جديدة يتولى شرحها شرحاً وافياً عالم خبير بتاريخ العلم وتاريخ الفلسفة ، ملم بجميع الحقائق الواردة فى الأصل صراحة أو ضمنا .

الفهارس: Marco Antonio Zimara, Tabuladilucidationum in dictis Aristotelis et Averrois

(من القطع الكبير ، البندقية ، ١٥٣٧) (مجلة Isis) ، عدد ٢٤١ ، ص ١٠٦ (١٩٥٠) . والفهارس الخاصة بكل كتاب على حدة التى أعدها فريدريك سيلبورج (١٥٨٤ — ١٥٨٧) أعاد بكر طبعها فى أكسفورد (١٨٣٧) . وهناك فهرس واف جداً وضعه هرمان بونيتز Indux Aristotelicus (٨٩٦ ص من القطع الصغير — برلين — ١٨٧٠) . وهذا هو المجلد الأخير فى طبعة بكر التى ظهرت مجلداتها الأربعة الأولى فى ١٨٣١ — ١٨٤٦ . ويوجد أيضا فهرس وضعه إميل هيتز فى المجلد الخامس من طبعة ديدو (٩٢٣ ص — باريس — ١٨٧٤) ، التى ظهرت مجلداتها الأربعة الأولى فى ١٨٤٨ — ١٨٦٩ .

ولكل كتاب على حدة فهارس خاصة به فى طبعة أكسفورد الإنجليزية .

Troy Wilson Organ, Index to Aristotle in English translation
(183 pp.; Princeton: Princeton University Press, 1949)
(Isis 40, 357 (1949) .

وقد نشرت أكاديمية برلين سلسلة ضخمة من الشروح :

Commentaria in Aristotelem graeca (23 Vols,, 1882 — 19o9)
Sipplementum Aristotelicum (3 Vols., 1885 — 19o3) .

وعند القيام بالبحوث الخاصة ينبغى الرجوع إلى أحدث الطبعات المحققة للنص المطلوب. وهذه الطبعات كثيرة جداً بحيث لا يمكن ذكرها هنا . على أن معظم الرغبات قد تتحقق بالرجوع إلى الطبعات العامة المذكورة قبل .

شكل ٨٩ — الطبعة اللاتينية الأولى ، لكتاب « النفس » (بادوا ، ١٤٧٢) ، نشرها لاورنتيوس كانوزيوس أحد أهالى لنداريا ، وكان يعمل فى بادوا من سنة ١٤٧٢ إلى ١٤٧٥ (كتالوج المتحف البريطانى ، مجلد ٧ ، ص ٩٠٧ كلبس ٨٤ — ١) وقد تم طبع هذا الكتاب فى ٢٢ نوفمبر ١٤٧٢ — ٩٠ ورقة من القطع الكبير فى عمودين ، وكل فقرة من النص مكتوبة مرتين ، مرة فى ترجمة لاتينية جديدة ، ومرة فى ترجمة لاتينية قديمة ، ومتبوعة بشرح ابن رشد على الأخيرة ، والشكل يمثل الصفحة الأولى (نقلا عن النسخة الموجودة بمكتبة جامعة هارفارد) .

ἈΡΙΣΤΟΤΕΛΟΥΣ ἈΝΑΛΥΤΙΚΩΝ ΠΡΟΤΕΡΩΝ ΠΡΩΤΟΝ.

ΠΕΡῚ ΤΩ͂Ν ΤΡΙΩ͂Ν ΣΧΗΜΑΤΩΝ.

ΠΡΩ͂ΤΟΝ εἰπεῖν περὶ τί, καὶ τίνος ἡ σκέψις ἐστίν· ὅτι περὶ ἀπόδειξιν, καὶ ἐπιστήμης ἀποδεικτικῆς· εἶτα διορίσαι, τί ἐστι πρότασις· καὶ τί ὅρος· καὶ τί συλλογισμός· καὶ ποῖος τέλειος καὶ ποῖος ἀτελής· μετὰ δὲ ταῦτα, τί τὸ ἐν ὅλῳ εἶναι, ἢ μὴ εἶναι, τόδε τῷδε· καὶ τί λέγομεν τὸ κατὰ παντὸς ἢ μηδενὸς κατηγορεῖσθαι. Πρότασις μὲν οὖν ἐστὶ λόγος καταφατικὸς ἢ ἀποφατικός, τινὸς κατά τινος· οὗτος δὲ ἢ καθόλου, ἢ ἐν μέρει, ἢ ἀδιόριστος· λέγω δὲ καθόλου μὲν, τὸ παντὶ ἢ μηδενὶ ὑπάρχειν· ἐν μέρει δὲ, τὸ τινὶ ἢ μὴ τινὶ ἢ μὴ παντὶ ὑπάρχειν· ἀδιόριστον δὲ, τὸ ὑπάρχειν ἢ μὴ ὑπάρχειν, ἄνευ τοῦ καθόλου ἢ κατὰ μέρος· οἷον τὸ τῶν ἐναντίων, εἶναι τὴν αὐτὴν ἐπιστήμην· ἢ τὸ τὴν ἡδονὴν, μὴ εἶναι ἀγαθόν· διαφέρει δὲ ἡ ἀποδεικτικὴ πρότασις, τῆς διαλεκτικῆς· ὅτι ἡ μὲν ἀποδεικτική, λῆψις θατέρου μορίου τῆς ἀντιφάσεώς ἐστιν· οὐ γὰρ ἐρωτᾷ, ἀλλὰ λαμβάνει ὁ ἀποδεικνύων· ἡ δὲ διαλεκτική, ἐρώτησις τῆς ἀντιφάσεώς ἐστιν· οὐδὲν δὲ διοίσει πρὸς τὸ γενέσθαι τὸν ἑκατέρου συλλογισμόν· καὶ γὰρ ὁ ἀποδεικνύων καὶ ὁ ἐρωτῶν, συλλογίζεται, λαβών τι κατά τινος ὑπάρχειν ἢ μὴ ὑπάρχειν· ὥστε ἔσται συλλογιστικὴ μὲν πρότασις, ἁπλῶς κατάφασις ἢ ἀπόφασίς τινος κατά τινος, κατὰ τὸν εἰρημένον τρόπον· ἀποδεικτικὴ δὲ, ἐὰν ἀληθὴς ᾖ, καὶ διὰ τῶν ἐξ ἀρχῆς ὑποθέσεων εἰλημμένη· δια-

شكل رقم ٩٠ – صفحة من الطبعة اليونانية الأولى لمؤلفات أرسطو ، وهى ٥ مجلدات من القطع الكبير فى ٦ . طبعها ألدوس مانوتيوس فى البندقية ١٤٩٥ – ١٤٩٨ (كلبس ٨٣–١) . وهذه الصفحة مأخوذة من مجلد رقم ١ ، وفيه الأورجانون – نوفبر ١٤٩٥ . وهى بداية مبحث « التحليلات الأولى » . لاحظ الطبع الأنيق المليء بروابط الحروف ، وهو يبدو كما لو كان صفحة من مخطوط . وفى عبارة اختتام الكتاب امتياز ممنوح من مجلس شيوخ البندقية ، يحرم على سائر الطباعين نشر هذه النصوص عينها (نقلا عن النسخة الموجودة بمكتبة جامعة هارفارد) .

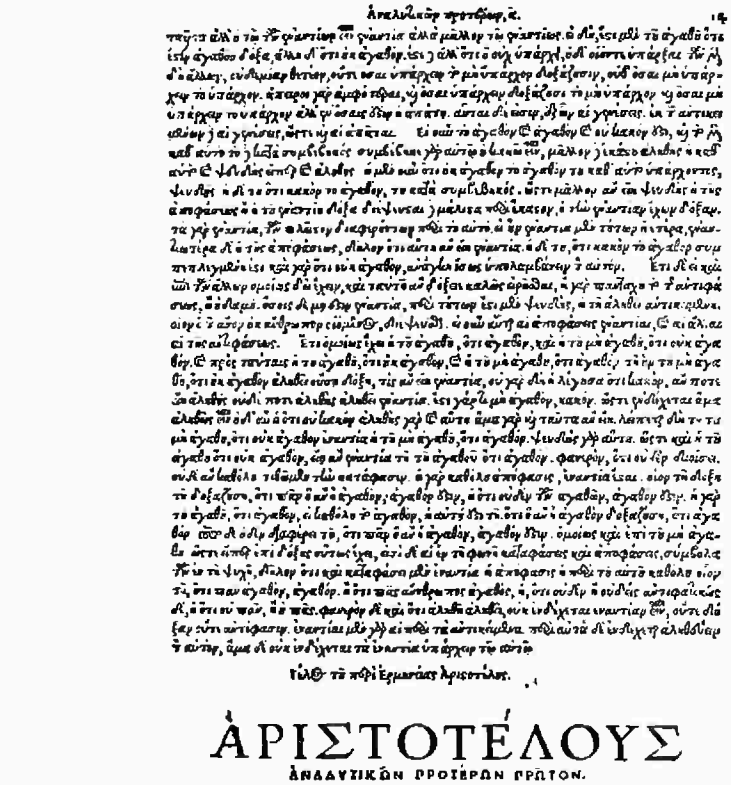

شكل رقم ٩١ – صفحة من الطبعة اليونانية الثانية لمؤلفات أرسطو التى أعدها ارازموس (روتردام) وجرينايوس (هيدلبرج) وقام بطباعتها بيبل فى بال ، سنة ١٥٣١ . وتقع فى مجلدين من القطع الكبير يدبجان عادة فى مجلد واحد . والطباعة أقل أناقة بكثير من الطبعة الأولى. وقد اخترنا على سبيل المقارنة نصاً واحداً فى الطبعتين ؛ هو بداية مبحث « التحليلات الأول » ، المسبوق فى الصفحة عينها بنهاية مبحث « العبارة » (نقلا عن النسخة الموجودة بمكتبة جامعة هارفارد)

LIBRORVM OMNIVM QVI HOC OPERE CONtinentur, & quos uidere nobis hactenus græce impressos contigit, catalogus. Extant enim latine quidam, qui nusquam dum impressi fuerunt.

IN PRIMO TOMO SVNT

Πορφυρίου εἰσαγωγή. Βιβλίον α'		Porphyrij introductio, lib. I	fol. I
Ἀριστοτέλους κατηγορίαι	Βιβ. α'	Aristotelis prædicamentorum lib. I	4
περὶ ἑρμηνείας.	Βιβ. α'	De enunciatione, lib. I	10
Ἀναλυτικῶν προτέρων	Βιβ. β'	Resolutionum priorum, lib. II	14
Ἀναλυτικῶν ὑστέρων	Βιβ. β'	Resolutionum posteriorum, lib. II	36
Τοπικῶν	Βιβ. η'	De locis, lib. VIII	48
περὶ σοφιστικῶν ἐλέγχων	Βιβ. α'	De sophisticis redargutionibus, lib. I	75
φυσικῆς ἀκροάσεως, ἢ περὶ κινήσεως, Βιβλία η'		De auscultatione naturali, siue de motu, lib. VIII	84
περὶ οὐρανοῦ	Βιβ. δ'	De cœlo, lib. IIII	115
περὶ γενέσεως καὶ φθορᾶς	Βιβ. β'	De generatione & corruptione, lib. II	132
Μετεωρολογικῶν	Βιβ. δ'	De his quæ in sublimi fiunt, lib. IIII	142
περὶ κόσμου	Βιβ. α'	De mundo, lib. I	158
περὶ ψυχῆς	Βιβ. γ'	De anima, lib. III	166
περὶ αἰσθήσεως καὶ αἰσθητῶν	Βιβ. α'	De sensu & sensibili, lib. I	178
περὶ μνήμης καὶ τοῦ μνημονεύειν	Βιβ. α'	De memoria & meminisse, lib. I	182
περὶ ὕπνου καὶ ἐγρηγόρσεως	Βιβ. α'	De somno & uigilia, lib. I	184
περὶ ἐνυπνίων	Βιβ. α'	De insomnijs, lib. I	186
περὶ τῆς καθ' ὕπνον μαντικῆς	Βιβ. α'	De diuinatione per somnum, lib. I	187
περὶ ζώων κινήσεως	Βιβ. α'	De motu animalium, lib. I	188
περὶ μακροβιότητος, καὶ βραχυβιότητος Βιβλίον α'		De longitudine & breuitate uitæ, liber I	190
περὶ νεότητος, καὶ γήρως, καὶ ζωῆς, καὶ θανάτου	Βιβ. α'	De iuuentute, senecta, uita, & morte, liber I	190
περὶ ἀναπνοῆς	Βιβ. α'	De respiratione, lib. I	193
περὶ ζώων πορείας	Βιβ. α'	De ingressu animalium, lib. I	197
περὶ πνεύματος	Βιβ. α'	De flatu, lib. I	200
περὶ ζώων γενέσεως	Βιβ. ε'	De generatione animalium, lib. V	202
περὶ ζώων μορίων	Βιβ. δ'	De partibus animalium, lib. IIII	232
περὶ ζώων ἱστορίας.	Βιβ. κ'	De historia animalium, lib. X	255
περὶ χρωμάτων	Βιβ. α'	De coloribus, lib. I	316
περὶ φυσιογνωμικῶν	Βιβ. α'	De physiognomicis, lib. I	314
περὶ θαυμασίων ἀκουσμάτων	Βιβ. α'	De mirabilibus auscultationib. lib. I	319
περὶ Ξενοφάνους, καὶ Ζήνωνος, καὶ Γοργίου Βιβλίον α'		De Xenophane, Zenone, & Gorgia, liber I	324
περὶ ἀτόμων γραμμῶν	Βιβ. α'	De insecabilibus lineis, lib. I	327
Μηχανικά	Βιβ. α'	Mechanica, lib. I	331

IN SECVNDO TOMO SVNT

Ἠθικῶν Νικομαχείων	Βιβ. κ'	Ethicorum ad Nicomachum, lib. X	2
Ἠθικῶν μεγάλων	Βιβ. β'	Magna moralia, lib. II	36
Εὐδημίων	Βιβ. η'	Ad Eudemum, lib. VII	49
Πολιτικῶν	Βιβ. η'	De rebuspublicis, lib. VIII	74
Οἰκονομικῶν	Βιβ. β'	De rebus domesticis, lib. II	115
Ῥητορικῶν	Βιβ. γ'	De arte dicendi, lib. III	118
Ῥητορικῶν πρὸς Ἀλέξανδρον	Βιβ. α'	De arte dicendi ad Alexandrū, lib. I	147
Ποιητικῶν	Βιβ. α'	De Poëtica, lib. I	158
Προβλημάτων	τμήματα λη'	Problematum, sectiones XXXVIII	165
Τῶν μετὰ τὰ φυσικά	Βιβ. ν'	Metaphysicorum, lib. XIIII	209

شكل رقم ٩٢ – صفحة أخرى من الطبعة اليونانية الثانية (بال ، ١٥٣١) . والنص الأصلي مسبوق بمقدمة من ثمان ورقات تتضمن إهداء باللاتينية من أرازموس إلى جون مور ، بتاريخ ١٥٣١ بفريبورج فى بريزجاو ، وسيرة موجزة عن أرسطو بقلم جوارينو الفيرونى ، وقائمة بالمحتويات (صفحة الورقة الأخيرة) ؛ وهى التى تظهر فى هذا الشكل . لاحظ أن النص الأصلى يبدأ » بمقدمة « بورفيريوس (النصف الثانى من القرن الثالث) وهى تضاف إلى الأورجانون كثيراً (نقلا عن النسخة الموجودة بمكتبة جامعة هارفارد) .

الإسكندر الأكبر (٣٥٦ ــ ٣٢٣) والإمبراطورية المقدونية [٣٦] :

ولد الإسكندر فى بللا فى صيف عام ٣٥٦ بعد ثمان وعشرين سنة من مولد أرسطو ، أبوه فيليب الثانى ، وأمه أوليمبياس ، إحدى أميرات إبيروس ، وهى امرأة ملتهبة العواطف ، مؤمنة بالخرافات . ولا نعلم شيئاً عن تعليمه فى الصغر ، لكن عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره استدعى أرسطو ليقوم بتثقيفه . ولم يستمر الإسكندر فى تلمذته لأرسطو سوى ثلاث سنوات ، لأنه اضطر فى سن السادسة عشرة أن يحكم مقدونيا نيابة عن أبيه المتغيب ، واشترك فى سن مبكرة فى المعارك الحربية . ففى الثامنة عشرة قاد الجناح الأيسر من جيش أبيه فى موقعة خيرونيا . ولما تزوج أبوه من كليوباطرة فى السنة التالية ، اضطر الإسكندر إلى الفرار مع أمه إلى إلليريا . ولا ندرى ماذا كان يحدث لهذا الشاب لو أنه بقى فى المنفى؟ لكن عجلة التوفيق دارت له ، وكان دورانها جدّ سريع . إذ اغتيل فيليب بعد سنة [٣٧] ، وارتقى الإسكندر عرش مقدونيا وهو فى العشرين (٣٣٦) .

ولنرجع لحظة إلى أيام تلمذته لأرسطو . إنها تركت فى نفسه أثراً عميقاً مع أنها لم تستمر فترة طويلة . وماذا علمه أرسطو ؟ علمه الشعر ، ولا سيما الإلياذة (وكان الإسكندر يضع تحت وسادته نسخة من الإلياذة نقحها له معلمه) ، وتاريخ بلاد اليونان وفارس ، وجغرافية آسيا الصغرى ، والأخلاق ، والسياسة . ولم يتأثر الإسكندر بدروس أرسطو فى حد ذاتها بقدر تأثره بروح أستاذه فى التدريس . ونحن على يقين من أن هذا التدريس كان متزناً ، عمليًّا ، معتدلا ، كما كان سامياً نبيلا . فقد كان فى وسع أرسطو أن يكون أفضل المعلمين ، بقدر ما كان أفلاطون أسوأهم . وانتهت فترة التلمذة بداهة عندما استدعى الإسكندر للاضطلاع بالأعباء الإدارية والحربية . ومع هذا فقد استمر يتخذ من أرسطو صديقا مكرماً وناصحاً أميناً [٣٨] وظلت العلاقات الودية بينهما قائمة على الأقل حتى مصرع كاللستينس سنة ٣٢٧ [٣٩] .

والقرائن كثيرة على حسن معاملة الإسكندر لمعلمه السابق . فلم تكد تؤول

إليه مقاليد الأمور حتى أمر بإعادة بناء اسطاغيرا . مسقط رأس أرسطو ، وكان فيليب قد دمرها . وعندما فتحها لسبوس وقاها شر النهب إرضاء لثيوفراستوس ، صديق أرسطو . ولما زار قبر أخيل فى منطقة طروادة ، كان فى صحبته كاليتنيس ، ابن أخت أرسطو . كما قدم مساعدات كبيرة لليكيوم ، ولأرسطو نفسه ، ولمساعديه ، كى يواصلوا بحوثهم العلمية .

ومع أننا نحسب أن قرّاء هذا الكتاب لا يحفلون كثيراً بالفتوحات الحربية فإننا نرى أنه يجب أن نستعرض فى إيجاز حملات الإسكندر لكى نوضح مظاهر عبقريته .

بدأت حملاته فى بلاد اليونان ، إذ كان لزاما عليه أن يخمد الثورات التى نشبت فى جهات عدة بعد مقتل أبيه . وإظهاراً لمبلغ قسوته ، وإرهاباً لمن تسول لهم نفوسهم القيام بثورات أخرى ، دمر طيبة ، مبقياً على بيت الشاعر بندار فقط ، (وهذا سلوك يتميز به) . . مع استسلام أثينا وولائها ، أثار ديموستين — وكانت فارس تمده بالمال — قلاقل جديدة . ولكن الإسكندر أعرض عنها ، وأعيد تكوين الحلف الهلينى (وبقيت إسبرطة خارجة) ، وانتخب الإسكندر زعيما له ، وأصبح فى وسعه أن يستأنف خطة فيليب لفتح آسيا . ولم يكن فى مقدور حامى ذمار الحضارة الهلينية أن يفعل أقل من ذلك ، إذ اتضح بجلاء أن الوحدة اليونانية ستظل معرضة للخطر مادامت فارس قادرة على إثارة البغضاء والتمرد بين الدويلات اليونانية .

وكان للإسكندر مقدرة عظيمة على التأثير فى النفوس ، كان يعرف كيف يثير إخلاص جنوده وإعجابهم ، ويغذى فيهم روح الخرافات التى تخدم مصالحه . وبعد أن جمع جيشاً مقدونياً ينتظم فرقا من جميع الدويلات اليونانية (ما عدا إسبرطة) ، بدأ فتوحاته فى الركن الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ، ونزل بسهل طروادة ، وأقام الصلوات فى معبد أثينا ، باعثا من جديد ذكريات المجد القديم الذى قرأ عنه كل يونانى فى الإلياذة . وهكذا ظهر بجنوده فى صورة أخيل الجديد . وكسب أولى معاركه الكبيرة فى سنة ٣٣٤ على مقربة من نهر جرانيكوس (فى إقليم ميسيا) . ولم يستطع الولاة من الفرس الوقوف فى وجه الفيلق المقدونى :

ومنوا بهزيمة ساحقة ، أصبح الإسكندر بعدها حرًّا فى أن يزحف جنوبا ، محرراً المستعمرات اليونانية الواحدة تلو الأخرى . ولكن مركزه استهدف للخطر من جراء وجود أسطول فارسى قوى قد يقطع خط مواصلاته مع مقدونيا وبلاد اليونان . ولذلك وطد عزمه على أن يسيطر على جميع الموانى (فى آسيا الصغرى وسوريا ومصر) ، ليحرم الأسطول الفارسى الارتكاز عليها ، وتم له ذلك بسرعة مذهلة ، وقاد الإسكندر جيوشه عبر آسيا الصغرى ، ثم اجتاز أبواب قيليقية ، واشتبك فى معركة أخرى كبيرة عند أسوس [٤٠] فى سنة ٣٣٣ ، موقعاً الهزيمة بالجيش الفارسى الأعظم ، وكان يقوده الملك الأكبر نفسه ، دارا الثالث ، آخر أفراد أسرته . والتمس دارا الصلح ، عارضا التنازل عن جميع المنطقة الواقعة غربىّ الفرات . ولكن الإسكندر أدرك عندئذ مبلغ قوته ، ولم يكن ليستطيع كبح أطماعه ، وقبل أن يستكمل فتح الإمبراطورية الفارسية ، استولى على الموانى الفينيقية ومصر . وبذلك أصبح الأسطول الفارسى عاجزاً عن القتال ، وتشتتت وحداته أو دمرت . وبعدئذ استأنف الإسكندر غزو الشرق فعبر الفرات والدجلة ودحر دارا الثالث مرة أخرى عند أربلا (٣٣١) . واغتيل دارا بيد أحد رجاله فعامل الإسكندر أسرته معاملة نبيلة . وإذن لم يبق ما يحول بينه وبين الاستيلاء على المدن الفارسية مثل بابل وسوس وباساجردا (حيث زار الإسكندر قبر قورش) ، وبرسيبوليس (التى أضرمت النيران فى قصورها الرائعة) واكتبانا . ولم يستطع الإسكندر أن يقف عند هذا الحد ، بل أرغم جنوده على الزحف وسط الهضبة الإيرانية ، وعبور نهرى جيحون وسيحون ، ثم الاتجاه جنوبا صوب الهند . وكان فى استطاعته المسير إلى ما لانهاية لولا ما استولى على جنوده من يأس وتذمر . وقد أبحروا جنوباً فى نهر السند على ظهر ٨٠٠ سفينة ، وعندما بلغوا المحيط الهندى ، استولت الدهشة على اليونانيين لرؤية المد والجزر ، وهو منظر لم يألفوه من قبل . ثم عادوا إلى بابل ، بعضهم براً عبر الصحراوات الفارسية ، وبعضهم بحراً على سفن سارت بمحاذاة شواطئ المحيط الهندى واتجهت شمالا إلى الخليج الفارسى وشط العرب . ووصل من بقوا أحياء — بعد هذه الرحلة الخارقة — إلى بابل فى سنة ٣٢٣ .

وقد غيرت هذه الفتوح الهائلة أخلاق الإسكندر الذى كان بالفطرة كريم النفس، وقدأثبت شهامته فى مناسبات عدة، لكنه لم يستطع، من ناحية أخرى، أن يكبت شعوره بالزهو، فإذا لم يكن أحس بأنه إله، فقد أحس بأنه فوق البشر، أو بأنه إنسان مثالى، أى بطل بالمعنى اليونانى. وقد قضى أثناء إقامته فى مصر ثلاثة أسابيع فى زيارة معبد آمون بالصحراء الغربية، وهناك نودى به ابنا لزيوس آمون. وكان فى نظر المصريين إلها حيًّا، وفى نظر الآسيويين خليفة الملك الأكبر، وحاكماً مطلقاً لا يستطيع أحد أن ينقض له أمراً. وأما فى نظر اليونانيين فكان زعيم الحلف الهلينى وحامى حماه، وبطلا فاتحاً. ودكتاتورا. وكان هو الضحية الأولى لسلطانه الجامح الذى لا رقيب عليه، شأنه فى ذلك شأن كل دكتاتور غيره. كان الموت جزاء من اجترأ على معارضته، سواء فى شئون الحكم أم فى المناقشة، حتى فى اللهو. وكان سبباً مباشراً أو غير مباشر فى مصرع كثير من الناس من أمثال فيلوتاس بن بارمنيون سنة ٣٣٠، أكفأ قواده، وبارمنيون نفسه، وقد قتل بيديه كليتوس، خير أصدقائه، الذى أنقذ حياته فى موقعة جرانيكوس، وأعدم كالليستنيس فى سنة ٣٢٧. وكان الثمن الذى دفعه الإسكندر لشراء مجده هو تلك الأعمال الشائنة التى لا يكفر عنها أبداً نصر ولا سؤدد مهما بلغ شأنه.

ولم يتبق له سوى صديق واحد هو هيفايستيون Hephaistion المقدونى ابن أمينتور. لكنه مات بالحمى فى سنة ٣٢٤، فبكاه الملك بكاء مرًّا. وبينما كان الإسكندر يضع خططاً جديدة لغزو بلاد العرب — بل لعله نوى غزو غربى البحر المتوسط أيضا — (لأن هذه الخطط كانت جزءا من حملته الانتقامية) مرض بالحمى، وقضى نحبه فى بابل فى يونية ٣٢٣. وقد استغرقت حملاته العجيبة ثلاث عشرة سنة، فتح خلالها جانباً كبيراً من العالم، وتسبب — مع نبل أخلاقه — فى مقتل جموع لا حصر لها من الناس وفى شقائهم.

هكذا كانت حياة الإسكندر الأكبر ومماته، ذلك الرجل الذى لا سبيل إلى أن تنسى أعماله أو تغفر له.

كان الإسكندر فى موته موفقاً أكثر من غيره من الغزاة ، لأنه لم يشهد تفكك إمبراطوريته . إنه مع جليل قدر ما أنجزه لم يكن قد أنجز من عمله سوى بدايته ، وهى أيسر جانب منه . وبقى جانب كبير يتطلب الإنجاز لتدعيم انتصاراته وتنظيم الإمبراطورية ، ووقف عوامل النزاع والضعف التى لا حصر لها . ولئن كان من الميسور انتزاع العالم من أيد هزيلة ، فقد كان من المستحيل ، حتى على أقوى الأيدى ، أن تحتفظ به سليماً كاملا . وقد أكرمت الأقدار الإسكندر بأكثر مما يستحقه ، وتوفته وهو فى أوج مجده . كان الإسكندر أشبه بالمقامر يكسب كل ما على مائدة القمار ثم يلفظ أنفاسه الأخيرة فجأة قبل أن يخسره .

لم تبق إمبراطورية الإسكندر قائمة من بعده . فقد تطاحن قواده طوال الخمسين سنة التالية للحصول على أكبر نصيب من السلطان . وظهرت حوالى سنة ٢٧٥ ثلاث أسر : أسرة أنتيجونوس التى سيطرت على مقدونيا وبلاد اليونان ، وأسرة سليوكوس فى آسيا الغربية ، وأسرة بطلميوس وقد حكمت جنوب سوريا ومصر وبرقة وقبرص . أما بلاد اليونان فقد تمزقت أوصالها فعادت سيرتها الأولى ، تتحالف بعض دويلاتها أحيانا ضد البعض الآخر . ولم تزل إمبراطورية الإسكندر من الوجود فحسب ، بل أدمجت بلاد اليونان ومقدونيا فى الإمبراطورية الرومانية الجديدة . ولم يأت عام ٢٠٠ حتى أشرف استقلال بلاد اليونان على النهاية . لقد احتفظت مقدونيا بكيانها حقبة طويلة قبل الإسكندر ، بيد أنها لم تعمر بعده قرنين من الزمان ، وانهارت فى سنة ١٦٧ وأصبحت ولاية رومانية فى سنة ١٤٦ (٤١) فلم يشيد الإسكندر إمبراطورية وطيدة الأركان . وإنما أسهم فى القضاء على بلاده التى ورثها عن أبيه .

هل توهم الإسكندر أنه إله ؟ وكيف له ذلك لو كانت لديه ذرة من ذكاء؟ هل يتألم الآلهة ويخدعون ؟ وهل كان الإسكندر يحلم بإمبراطورية عالمية ؟ لعله لم يقصد إلى ذلك ، لكن ربة الانتقام دفعته إلى التوسع فى الفتح . وإزاء ذلك غدت إمبراطوريته مترامية الأطراف ، متباينة الأجناس ، طافحة بأنواع

المنازعات الخارجية والداخلية . وكانت الحرب الأهلية أو الأجنبية هى السبيل الوحيد لتخفيف حدة هذه المنازعات . وهكذا استمرت حركة التوسع بينما أرجئت حركات القمع الداخلية إلى حين . ولو امتد الأجل بالإسكندر ، لأضاع بقية عمره فى نزاع مستمر عقيم .

ومن الجائز أن قوماً آخرين توهموا أنه إله ، لأنه تمتع بسلطان لا حد له . فقد آمن المصريون بألوهيته ، ولعل بعض الآسيويين شاركوهم فى ذلك. وأما اليونانيون فلم يؤمنوا به كل الإيمان . ولعل ما يعامل به الدكتاتوريون فى عصرنا المستنير من إجلال وتقديس يعيننا على تفهم الوضع الذى قام منذ أربعة وعشرين قرنا .

كان الإسكندر مع اندفاعه نبيل الخلق ، وكان من جهة رئيسية أنبل خلقاً من أرسطو ، بغض النظر عن أفلاطون . إذ اعتبر الفيلسوفان أن المتبربرين ، أى غير اليونانيين ، من جنس أدنى ، وأنه من الصواب شهر الحرب عليهم ، واستئصال شأفتهم ، واسترقاقهم ، وأن اليونانيين ولدوا أحراراً والمتبربرين عبيداً . ومما يذكر للإسكندر بالتقدير أنه استطاع أن يرتفع بنفسه عن مستوى أستاذه (٤٢) .

أدرك الإسكندر ما لم يدركه أفلاطون ولا أرسطو ، وهو إمكان قيام الوحدة بين جميع البشر . ويرجع تفوقه الخلقى فى هذا الصدد إلى أنه كان أكثر منهما خبرة بالرجال . لقد عرف منذ طفولته أسوأ جانب من الحياة اليونانية والمقدونية ، ولم يكن من الميسور أن يظل فساد حاشية الأب محتجباً عن عينى الابن الذكى عندما شب عن الطوق. فإذا لم يكن أبوه قد أطلعه على هذا الفساد ، فلا يستبعد أن تكون أمه قد فعلت ذلك . وليس ثمة شك ، من ناحية أخرى ، فى أنه عرف كثيرين من أفاضل الشرقيين . ولا بد أنه تبين مبكراً أن ما بين اليونانيين والمتبربرين من عداء وهماً باطلاً ، وأن خبرته بالرجال ازدادت زيادة كبيرة فى خلال حياته القصيرة الحافلة بالأحداث . ولما كان هو نفسه قد عُبد ، فقد ارتفع إلى مستوى شاهق رأى منه جميع الناس سواسية فى عدم مساواته . ويسر له ذلك أن ينظر بعين التسامح إلى خلافاتهم ، وأن يدرك ما بينهم من إخاء أصيل .

ولئن لم يكن من المرجح أن الإسكندر حلم ببناء إمبراطورية عالمية ، فمن المقطوع به أنه حلم بقيام وئام عالمى (Concordia)، إذ أدرك أن الناس لا ينبغى أن يرتبوا ترتيباً أعمى وفقاً لأجناسهم ، بل ينبغى أن يرتبوا بروح متسمة بالتعقل والعطف وفقاً لكفاياتهم . وربّ معترض يقول إن غزاة آخرين خطرت لهم هذه الفكرة ، ويزعم فى دفاعه الوحيد عن أعمالهم أنهم ما خرجوا لغزو الشعوب بل لتوحيدها ، وتحريرها ، لا استعبادها[٤٣] . ونحن لاننكر ذلك ، بيد أن الإسكندر كان أول من خطرت له هذه الفكرة ، وفضله أكبر ، لأنه كان من الطبيعى أن يساير ميول أفلاطون وأرسطو الخبيثة . وأقوى دليل على عبقريته استطاعته التغلب وحده على تلك الميول .

ولعل نسبه الشخصى هو الذى حبب إليه فكرته عن ضرورة المزج بين الشعوب للعمل معاً على خير الإنسانية . فلم يكن الإسكندر كأفلاطون إغريقياً صميماً، بل نصف متبربر[٤٤] . ومهما يكن من شىء، فقد بذل ما فى وسعه لتحقيق هدفه السياسى الجديد بتنصيب الشرقيين ولاة على المقاطعات ، وتقليدهم وظائف سامية أخرى . وإدماج جنود من أجناس مختلفة فى جيوشه ، ومزج شعوب شتى فى مدنه الجديدة ، وزواجه من الأميرة الباكترية روكسانة ، وتشجيعه الزواج من الأجنبيات . ولئن كانت جميع هذه الإجراءات فيما يحتمل قاصرة جداً ، فإنها تنهض دليلا على حسن نيته . وعلى بدء سياسة مختلفة عن سابقتها كل الاختلاف. وكما يقول الأستاذ تارن Tarn : « إن دولة أرسطو لم تحفل بمن يقطنون خارج حدودها ، فلا مناص من أن يكون الأجنبى عبداً أو عدواً . ولكن الإسكندر قلب ذلك كله . وعندما نادى بأن جميع البشر أبناء لرب واحد ، وابتهل فى أوبيس أن يكون المقدونيون والفرس شركاء فى الإمبراطورية ، وأن تعيش كل شعوب الأرض فى وئام واتحاد قلبى وفكرى ، كان أول داع إلى الوحدة والإخاء بين البشر كافة[٤٥] » .

تلك الفكرة ، فكرة الإخاء بين البشر ، كثيراً ما تنسب إلى الكلبيين والرواقيين والمسيحيين ، ولكن الإسكندر كان أسبقهم إليها[٤٦] . وينبغى

ألا ننسى أن زينون الرواقى ولد حوالى الوقت الذى بدأ الإسكندر فيه حملته ، ولم يكن قد ناهز الثانية عشرة من عمره عندما مات الفاتح .

وكان ديوجينس السينوبى (حوالى ٤٠٠ – ٣٢٥) ، وهو كثيراً ما يعتبر مؤسس المدرسة الكلبية ، أكبر سنًّا من الإسكندر . ولئن صدقت القصة المشهورة ، فقد قابل الإسكندر فى المؤتمر العام الذى عقده اليونانيون عند خليج كورنثيا . فلما نصب الإسكندر قائداً للحملة ضد الفرس ، أقبل عليه كثير من الناس مهنئين . ولكن ديوجينس – وكان يقيم فى كورنثيا ، لم يحذ حذوهم بل تجاهل وجود الملك تجاهلا تاما . « وقد ذهب الإسكندر شخصيًّا ليراه فوجده مستلقيا فى ضوء الشمس . ونهض ديوجينس قليلا عندما رأى حشداً كبيراً مقبلا عليه ، وتفرس فى عينى الإسكندر . فلما حياه ذلك العاهل وسأله إن كان يرغب فى شىء ، أجابه : نعم ، أن تبتعد قليلا حتى لا تحجب عنى ضوء الشمس » . وروى أن الإسكندر راعته تلك الإجابة ، وأعجب أيما إعجاب بإباء الفيلسوف وشممه ، مع أنه لم يظهر له سوى الازدراء ، حتى إنه قال لأتباعه وهم يغادرون المكان ضاحكين وساخرين من الفيلسوف : « الحق لو لم أكن الإسكندر لتمنيت أن أكون ديوجينس » [٤٧] .

ولعل ديوجنيس قد ألهم الإسكندر ، غير أن فكرة الكلبيين عن العالمية (إن كانت قد وجدت) لم تنبت إلا فى وقت متأخر [٤٨] .

ولم يكن الإسكندر بفضل عبقريته وتعليم أرسطو فاتحاً جهولا . ولعله كان يصبح رجلا أعظم مما كان لو لم ترغمه الظروف السيئة على غزو العالم . فقد اهتم بمشروعات أرسطو ، وأبدى استعداده لإعانة الليكيوم ، ومدها بجميع مواد البحث التى تحتاج إليها [٤٩] . وفى وسعنا أن نقول إن حملاته الآسيوية كانت أول حملات علمية . فهو لم يقتصر على مهندسين قادرين على بناء الآلات الحربية أو إقامة الجسور وحفر المناجم ، ومعماريين وجغرافيين ومساحين ، بل كان فى حملته هيئة للقيام بأعمال السكرتيرية أو تدوين الأحداث التاريخية ، على رأسها يومينس الكاردى ، وفلاسفة وأدباء مثل كاالليستنيس الأولينثى وأناكساجوراس

أحد أتباع ديموكريتوس ، وتلميذه بيرون ، مؤسس مدرسة الشكاك وأونيسيكريتوس البحار الروائى . وعلماء حيوان ونبات لجمع عينات لليكيوم ، وبطلميوس ابن لاجوس (وهو بطلميوس الأول ملك مصر منذ سنة ٣٦٧ إلى سنة ٢٨٢ على وجه التقريب) . وإليه يرجع الفضل فيما نعرفه من معلومات وثيقة عن حملات الإسكندر . وفى هذا كله أظهر الإسكندر ذلك الشغف بالعلم الذى سوّغ بعدَ صيت بونابرت فى هذا المضمار بعد واحد وعشرين قرناً من الزمان .

إن حلم الإسكندر بعالم متحد تحت زعامة اليونان جاء سابقاً لأوانه فلم يمكن تحقيقه . ولكنه حقق نوعاً من الوحدة الثقافية التى لم تندثر أبداً مع سطحيتها . ذلك ما يسمى باصطباغ الشرق بالحضارة الهلينية . وقد انتشرت بفضل جهوده المثل اليونانية فى ربوع آسيا الغربية حتى بلغت الهند والصين . ولعل أوضح شاهد على انتشار الحضارة الهلينية هو بوادر فن التصوير البوذى فى جندهارا ، بتأثير اليونانيين فيه [٥٠] . ولكن غرب آسيا بالذات هو الذى تأثر بالحضارة الهلينية (وكان قد تأثر بها قبل الإسكندر وظل متأثراً بها من بعده) ، ومن جراء ذلك غدا هذا الجزء من العالم أوثق صلة بأوربا منه ببقية أنحاء آسيا . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الشرق اصطبغ بالحضارة الهلينية ، ومع هذا فلا ينبغى لأحد أن ينسى أن ذلك اقترن بحركة أخرى تسير فى اتجاه مضاد . ألا وهى اصطباغ الغرب بالحضارة الشرقية [٥١] . وقد دخلت الغرب نظريات جديدة عن السيادة ، والسياسة . والحكم ، نتيجة لمسلك الإسكندر فى بابل ومسلك خلفائه فى مصر وآسيا . وكان « تأثر » الشرق بالغرب قد بدأ قبل الإسكندر واستمر خلال العصرين الهلينستى والرومانى ، بل إنه لم ينقطع حتى فى العصر البيزنطى . ولم يكن تأثر الغرب بحضارة الشرق ، أمراً مستحدثاً فى عصر الإسكندر . وإنما بلغت الحركتان أوجهما فى ذلك العصر .

لكن ينبغى بعد ذلك أن نؤكد مرة أخرى أن اصطباغ الشرق بالحضارة الهلينية والغرب بالحضارة الشرقية كان سطحياً طفيفاً . وذلك حال معظم المؤثرات الحضارية عند انتشارها ، فمثلها مثل الزيت على سطح الماء ، فالماء لا يتغير .

لقد عرف الشرق أساليب المعيشة اليونانية ، ولكنه لم يستطع أن يفهم المثل اليونانية ، ومن ثم لم تصلح هذه المثل أداة لاتحاد الطرفين . وهذا السبب قبل سواه هو الذى جعل الإمبراطورية المقدونية غير وطيدة الأركان ، فلم يكن هناك رباط يلم شملها سوى نفوذ الإسكندر الشخصى .

إن الحضارة اليونانية التى انتشرت فى آسيا الغربية كانت بلا شك لاحقة لعصر الإسكندر ، وقد انتشرت هناك تحت رعاية الرومان وحظيت بنوع من الاستقرار بفضل السلم الرومانى (Pax Romana) الذى استمر فترة غير قصيرة . وفى وسعنا أن نقول إن بذور العصر الإسكندرى لم تثمر — فى أحوال كثيرة — قبل أن هيأ لها السلم الرومانى الفرصة . وأفضل مثل على ذلك هو ديانة النجوم وكل ما يتصل بها (كدورة الأيام السبعة) وهى ترجع إلى زمن أفلاطون وفيليب الأوبوسى ، ولكنها لم تزدهر إلا زمن الرومان .

وكان للإسكندر تأثير من نوع آخر فى صورة أساطير . ولا ينبغى أن نستهين بهذا التأثير ، لأن السواد الأعظم من الناس سلم بصحة الأساطير ، وإن كانت صوراً ساخرة للواقع . وقد عرف العالم شخصية الإسكندر من طريق تلك الأساطير كما عرف هيلانة وأخيل من طريق الإلياذة. وكان الإسكندر الذى ورد فى الأساطير هو الإسكندر الحقيقى فى نظر السواد الأعظم من الناس ، فى الشرق والغرب . وانتشرت أسطورته فى كل مكان، حتى لقد نشأت عنها ثمانون قصة مكتوبة فى أربع وعشرين لغة . وعندما غزا المسلمون العالم بعده بألف عام، ساهموا فى ترويج قصة البطل العظيم ، الإسكندر « ذى القرنين » . وقد ترجمت القصة العربية إلى لغات أخرى [٥٢] .

وكانت بعض القصص الأولى التى روّجها المشاءون تندد بالإسكندر تنديداً شديداً لأن هؤلاء لم ينسوا مصرع كاليستينس على يديه. وهذه القصص تصوره تلميذاً نجيباً لأرسطو ، قضى عليه حظه الخارق فتدهور حتى صار طاغية فظًّا . وأما الأساطير المتأخرة فقد خلت من الإشارات السياسية وجعلت من الإسكندر بطلا خارقاً وساحراً تنسب إليه جميع أنواع المعجزات (mirabilia) ، وكلها

جزء من الأدب والقصص الشعبي ولا قيمة علمية لها ، ولكنها تزخر بالمعانى الإنسانية .

وسأخص بالذكر من بين المخلوقات التى خلدها تاريخ الإسكندر وقصته ، مخلوقاً واحداً وهو بوكيفالوس Bucephalos ، الجواد الأثير لدى البطل ، الذى قتل فى موقعة هيداسبيس فى سنة ٣٢٦ (٥٣) . وبوكيفالوس هو ألمع فصيلته . وسيبقى الإسكندر الأكبر ممتطياً صهوة جواده الأمين بوكيفالوس ، مابقى البشر .

الليكيوم The Lyceum (٣٣٥) : تأسيسها وتاريخها الأول :

ظل أرسطو مقيما فى بالا Pella وربما فى اسطاغيراو إن كان قد كف عن تثقيف الإسكندر عندما اضطلع بأعباء الإدارة والحرب ، بضع سنوات . وفى سنة ٣٣٦ خلف الإسكندر أباه على العرش وسرعان ما بدأ حملاته فى طراقيا وإلليريا ، ثم فى بلاد اليونان . ولم يأت عام ٣٣٥ حتى أصبح سيد بلاد اليونان ، فشرع يستعد لغزو آسيا ، ذلك الغزو الذى أنفق فيه بقية حياته القصيرة . وفى ذلك العام تأهبت مقدونيا للقتال ، فغدت مكانا غير ملائم للباحث ، وهذا ما حمل أرسطو على العودة إلى أثينا . فكيف كان وضعه هناك ؟ لقد قضى فى الأكاديمية عشرين سنة من شبابه (من سن ١٨ إلى سن ٣٨) طالباً وزميلا وصديقا . وها هوذا ، بعد مضى اثنتى عشرة سنة ، يعود إلى أثينا فى ركاب الجيش المقدونى ، فلم يرحب به بداهة جميع الأثينيين ، وإنما رحب به زملاؤه .

وعلى أية حال لم يستطع أرسطو العودة إلى مدرسته القديمة ، فأسس مدرسة جديدة فى حىّ آخر من أحياء المدينة . كانت الأكاديمية تقع فى الشمال الغربى للأسوار خارج بوابة ديبيلون ، وأما الليكيوم فقد أقيمت فى شرق الأسوار على مقربة من الطريق المؤدى إلى مراثون (٥٤) . وكان فى وسع المرء أن يشاهد من حدائق الليكيوم جبل ليكابيتوس فى الشمال ونهر اليسوس فى الجنوب . كانت الليكيوم أيكة مقدسة موقوفة على عبادة الإله أبوللون ليكيوس (الإله الذئب) واشتق اسمها من اسم هذا الإله . وفى مثل جو أثينا الدفىء كانت معظم الدروس

تلقى فى الفضاء تحت الأشجار أو تحت أحد الأروقة . وقد يجلس المعلم وتلاميذه فترة وبعدئذ يمشون ذهاباً وجيئة، ومن ثم جاءت تسميتهم « بالمشائين » .

وهناك فروق كبيرة بين معهدى أفلاطون وأرسطو. قضى أفلاطون نصف حياته مديراً للأكاديمية وعميدها الثقة، وأسس أرسطو الليكيوم فى الطرف الآخر من المدينة بعده باثنتين وخمسين سنة ، وأدارها ثلاثة عشر عاماً فقط (لا أربعين عاماً كأفلاطون) ؛ وكان معهد أفلاطون ابتكاراً عظيما، وخبرته بالتدريس ضئيلة نسبيًّا . لكن أرسطو كان فى سن الخمسين عندما فتح الليكيوم، واكتسب خبرة كبيرة بالرجال والطلاب فى أسوس وبالا . وبات أفلاطون يحلم دائماً بالصلة الوثيقة بين ملك عظيم وفيلسوف كبير ، ولكن حلمه لم يتحقق . ولقى أرسطو ، على النقيض من ذلك ، تأييداً من الإسكندر ، أقوى ملك فى العالم القديم ، وقد منحه إعانات مالية (وربما كان ذلك من باب الدعاية لمقدونيا) ، كما أمد المتحف . وهو جزء من المدرسة الجديدة ، بعينات من النباتات والحيوانات من كل نوع ، وهو أمر لا يقل أهمية عن المال . وكان فى وسع أرسطو دائما أن يحصل من سيده على أى شىء يحتاج إليه لجعل التعليم واقعيًّا مجدياً .

هذه الحقيقة توضح الفرق الجوهرى بين الليكيوم والأكاديمية . فلم يكن المهم هو استطاعة أرسطو الحصول على عينات عند احتياجه إليها . بل كان المهم احتياجه فعلا إليها ، على حين أن أفلاطون لم يكن ليحفل بها . وبينما قنع أفلاطون بالمثل الخالدة الأبدية ، اهتم أرسطو بالأشياء المحسوسة . ومعلوماتنا عن تعليم أرسطو طفيفة. يحدثنا أولوس جيليوس Aulus Gellius (النصف الثانى من القرن الثانى) أن أرسطو كان يلقى نوعين من الدروس ، صباحية للتلاميذ (esoterica, acroamatica) ومسائية للجمهور (exoterica) ، وروايته صادقة فى جملتها وإن كان شاهداً من عصر متأخر . ففى كل مدرسة تقريباً توجد دروس مباحة للجمهور ودروس غير مباحة ، لأن كلا النوعين يستجيب لرغبات طبيعية .

واختص كل من المدرستين بالفلسفة . غير أن الأكاديمية عنيت بالميتافيزيقا أو العلوم الإلهية حتى فى معالجتها لموضوعات عملية كالتربية والسياسة .

وأما الليكيوم فكانت مدرسة فلسفية بمعنى آخر سنحدده فيما يلى .وقد اهتم أرسطو بالمنطق والعلم ، وبفضل توجيهه غدت الليكيوم معهداً للبحث الفردى والبحث الجماعى أيضاً . فأكاديميات العلوم ، تسمية خاطئة ، وأجدر بها أن تسمى « ليكيوم » . ولكن اللغات لا ضابط لها ولا يستطيع أحد أن يتكهن مطمئناً بما يئول إليه بمرور الزمن معنى بعض الكلمات ، أصلية كانت أو دخيلة .

وقد راجت كلمة « ليكيوم » رواج كلمة « أكاديمية » فى جميع اللغات الغربية تقريبا . فى فرنسا تستعمل للدلالة على جميع المدارس الثانوية التابعة للدولة ، كما حظيت فى الولايات المتحدة ببعض الرواج بمعنى جمعيات حرة لإلقاء المحاضرات والمناظرات وإقامة حفلات الموسيقى والسمر من كل نوع .

لكن مع اختلاف الأكاديمية عن الليكيوم بقدر اختلاف مؤسسيهما ، لا ينبغى أن نغالى فى تصوير هذه الاختلافات ، بل لا ينبغى أن ننسى ما بينهما من أوجه شبه ، فقد كانت كل منهما معهداً للدراسات العليا المجردة عن الهوى ، وكان رئيس المعهد الثانى خريجاً نابهاً فى المعهد الأول، ولا يستبعد أن التلاميذ تنقلوا بين المعهدين أو استمعوا ، إن كانوا من التلاميذ اليقظين ، إلى المحاضرات فى كليهما . ويكشف تاريخ المعهدين عن أمثلة كثيرة تدل على تأثير كل منهما فى الآخر . فلم يكن ثمة ما يحول دون مناقشة مؤلفات أفلاطون فى الليكيوم أو مؤلفات أرسطو فى الأكاديمية. وكثير من شراح العصور التالية علقوا على مؤلفات كل من أفلاطون وأرسطو .

ومع ذلك فهذان الرجلان يمثلان أسلوبين متناقضين من التفكير ، يستوعبان جميع الاحتمالات حتى قيل إن كل إنسان مفكر إما أن يكون على مذهب أفلاطون أو على مذهب أرسطو . وهذا الكلام لا يقوم عليه برهان قاطع ، لكن من العجيب أنه قيل .

سنسرد الآن تاريخ الليكيوم فى عهدها الأول ، كما سردنا من قبل تاريخ الأكاديمية ، والسبب واحد . إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف كائناً إلا عندما يكون حياً متغيراً، ولا يستطيع أحد أن يعرف كيف كان حال الليكيوم دون أن

يدرس تطورها . وقد لا يخلو هذا الكلام من تناقض لأن أرسطو لم يكن فى وسعه أن يتكهن بمصير الليكيوم بأكثر مما يستطيع والد أن يتكهن بمصير أبنائه، أو مصير ذريته .

لم تدم رئاسة أرسطو لمدرسة الليكيوم سوى ثلاث عشرة سنة، وقرب نهاية حياته كان هناك رجلان جديران بأن يخلفاه ، وهما يوديموس الرودسى ، وثيوفراستوس الأريسى . ويحدثنا أولوس جيليوس[٥٥] أن أرسطو كان يؤثر الأخير متمثلا بنبيذ رودس وبنبيذ لسبوس « كلاهما جيد ولكن نبيذ لسبوس أحلى مذاقا (hedion ho Lesbios) . خلفه إذن ثيوفراستوس ، وفى وسعنا أن نسميه بالمؤسس الثانى لليكيوم ، لأنه رأسها ثمانية وثلاثين عاما (٣٢٣ — ٢٨٦) ، وأتم تنظيمها . وقد أوصى بجزء من أملاكه للمشرفين عليها ، مع تعليمات محددة عن استغلال ريعها . ولكنه وهب مكتبته لنيليوس . وخلف ثيوفراستوس ستراتون Straton اللامبساكى (النصف الأول من القرن الثالث ق.م.)، فرأسها تسعة عشر عاما (٢٨٦ — ٢٦٨)؛ وبذلك اكتمل العصر الذهبى لليكيوم. وأما الرئيس الرابع . وهو ليكون الطروادى Lycon of Troas . فظل رئيسها أربعة وأربعين عاما (٢٦٨ — ٢٢٥) ؛ وهى مدة تدهور بالقياس إلى سابقتها . ولم يحفل ليكون بالعلم . بل قصر اهتمامه على الأخلاق والبلاغة . ويمدنا ديوجنيس اللائرسى[٥٦] بمعلومات طريفة عن الرؤساء الأربعة الأول لليكيوم ، ذاكراً النص الكامل لوصاياهم ، ولا بد أنه استقى تلك الوثائق المدهشة من مصدر واحد . وتاريخ المدرسة الشهيرة بعد عهد ليكون مليء بالثغرات . وإن لمعت فيه بعض أسماء أهمها أندرونيكوس الرودسى (النصف الأول من القرن الأول) ، الذى ازدهر نشاطه فى أثينا حوالى ٨٠ ق . م . ، وكان الرئيس العاشر لليكيوم بعد أرسطو .

ولا ينبغى أن يقتصر تاريخ مدرسة الليكيوم على ذكر نشاط رؤسائها ، بل ينبغى أن نذكر بعض مساعديهم ، وألا نغفل التأثير المتبادل والتعاون أحيانا مع رجال الأكاديمية . فنى أثناء رئاسة أرسطو لليكيوم كان رئيس الأكاديمية ، وهو الثالث فى الترتيب ، صديقه كزينوكراتيس الخلقدونى . ومن تلاميذه

ثيوفراستوس ويوديموس وأريستوكسينيوس التارنتى وديكايارخوس المسينى وكليارخوس السولى . وكان من بين تلاميذ ثيوفراستوس ديمتريوس الفاليرى الذى أسس مكتبة الإسكندرية فيما بعد .

وفقدت مدرسة المشائين شخصيتها بعد عهد أندرونيكوس ، ولم يعد أعضاؤها مشائين خلصاً بل غدوا رواقيين ، وأفلاطونيين ، وأفلاطونيين محدثين . ولم يكن كبار رجال الفكر من أمثال بانائيتيوس الرودسى (النصف الثانى من القرن الثانى ق . م .) ، وفوسيدونيوس الأفامى (النصف الأول من القرن الأول ق . م .) ، وبطلميوس (النصف الأول من القرن الثانى) ، وجالينوس (النصف الثانى من القرن الثانى) مشائين إلا بقدر محدود ، فقد درسوا بعض مؤلفات أرسطو وتابعوا بعض اتجاهاته .

وبابتداء القرن الثالث يدور الكلام على الشراح لا على رؤساء الليكيوم . ومن أوائل أولئك وأعظمهم الإسكندر الأفروديسى (النصف الأول من القرن الثالث) ، الشهير « بالشارح » ، وهو الذى رأس الليكيوم فعلا من سنة ١٩٨ إلى سنة ٢١١ . وأصبح من الضرورى عندئذ تخليص آراء أرسطو من التفسيرات الأفلاطونية أو الأفلاطونية المحدثة . وتضاءلت أهمية الليكيوم وأصبحت الأكاديمية أهم مدرسة فلسفية فى أثينا خلال القرون الخمسة الأولى بعد المسيح حتى سنة ٥٢٩ ، وظلت وحدها قائمة ومحتفظة بكيانها الإدارى ، وفقدت كيانها الفلسفى ، ونحا اتجاهها الفكرى نحو الأفلاطونية المحدثة ، وإن اقترن باتجاهات كثيرة أخرى . لقد اختفت الليكيوم وغدت الأكاديمية مدرسة للفلسفة الوثنية .

الشراح الأوائل :

ليس تاريخ فكر أرسطو استعراضاً لتاريخ الفلسفة فحسب ، بل لتاريخ العلم أيضاً ، على الأقل حتى القرن الثامن عشر . ولا نستطيع أن ندخل فى تفصيلات ذلك دون استطراد طويل . وبهذه المناسبة تجدر بنا الإشارة إلى أن ما يجعل تاريخ العلم أمراً شاقاً هو عدم استطاعتنا تقدير أهمية أية مرحلة من مراحله إلا فى ضوء كل ما حدث قبلها وبعدها . وهذه مهمة شاقة جداً .

وقد شرحنا ضمناً فى « المقدمة » سيرة أرسطو كلها فى العصور القديمة والوسيطة . ولا مناص هنا من أن نكتفى بعرض إجمالى سريع. استمر تأثير أرسطو لا عن طريق المترجمين والشراح فحسب ، بل عن طريق الفلاسفة ورجال اللاهوت ورجال العلم الذين لم يجدوا مفرًّا من الالتقاء به فى كل خطوة . واضطروا إلى حنى الرأس له أو محاربته .

وقد سبق أن أشرنا إلى الإسكندر الأفروديسى « الشارح » . ولكنه لم يكن أول الشراح . وكان أندرونيكوس الرودسى (النصف الأول من القرن الأول ق . م .) ، أول ناشر لأرسطو ، وهو بداهة ممهد الطريق . وأعقبه فى النصف الثانى من ذلك القرن بوئيتوس الصيدى ، وأريستون السكندرى ، وكسنيارخوس السليوكى (قيليقية) ، ونيكولاوس الدمشقى (النصف الثانى من القرن الأول ق . م .) . وظهر فى القرن الميلادى الأول الإسكندر الآيجى . معلم نيرون الإمبراطور (٥٤ — ٦٨) . وأما فى القرن الثانى فقد ظهرت طائفة كبيرة من الشراح : بطلميوس خينوس السكندرى (ازدهر نشاطه فى عصر تراجان وهادريان الإمبراطورين من سنة ٩٨ إلى سنة ١٣٨) . وهو مؤلف كتاب « العالم » (De Mundo)[٥٧] ، واسباسيوس ، وأدراستوس الأفروديسى (النصف الأول من القرن الثانى) ، وبطلميوس (النصف الأول من القرن الثانى) ، وجالينوس (النصف الثانى من القرن الثانى) ، وأريستوكليس المسينى فى صقلية وهرمينوس . وكان الأخير معاصرا للإسكندر الأفروديسى الشهير (النصف الأول من القرن الثالث) ، الذى وصلت إلينا شروحه الوافية فى أصلها اليونانى أو فى ترجمات عربية .

وبالإسكندر الأفروديسى يبدأ لدارسى فلسفة أرسطو عصر جديد تلمع فيه أسماء بورفيريوس السورى (النصف الثانى من القرن الثالث) ، وأناتوليوس السكندرى (النصف الثانى من القرن الثالث) ، وثيميستيوس البافلاجونى (النصف الثانى من القرن الرابع ، وفى النصف الأول من القرن الخامس) وسيريانوس السكندرى رئيس الأكاديمية ، وفى القرن السادس لمعت أسماء داماسكيوس الدمشقى (النصف الأول من القرن السادس) ، ودورس العربى ، وأمونيوس

ابن هرمياس (النصف الأول من القرن السادس) ، وتلميذه اسكليبيوس الترالى (النصف الأول من القرن السادس) ، وسمبليقيوس القيليقى (النصف الأول من القرن السادس) . الذى ازدهر نشاطه فى أثينا وفارس ، ويوحنا فيلوبونوس السكندرى ، وهو أعظمهم جميعاً (النصف الأول من القرن السادس). ومن رجال هذا القرن عينه بوئيتيوس الرومانى [٥٨]. أول مترجم وشارح لاتينى (النصف الأول من القرن السادس) . ومن بين دارسى فلسفة أرسطو من اليونانيين بعض اللامعين فى العصور التالية ، مثل استيفانوس السكندرى (النصف الأول من القرن السابع) ، الذى ازدهر نشاطه فى القسطنطينية ، ويوستراتيوس النيقى (حوالى ١٠٥٠ — ١١٢٠) ، وميخائيل الافوسى ، تلميذ ميخائيل بسيللوس (النصف الثانى من القرن الحادى عشر) ، وسوفونياس (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) .

ثم انتقل تراث أرسطو من طريق جانبى ، على يد الفلاسفة العرب : الكندى العربى (النصف الأول من القرن التاسع) ، والفارابى الفارسى وقيل التركى (النصف الأول من القرن الحادى عشر) ، ولا سيما ابن رشد القرطبى (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) ، المعروف للعالم الغربى باسم أفيروس .

وقدتأثر القديس توماس الأكوينى وغيره من علماء الكنيسة الكاثوليكية بشروح ابن رشد الجديدة على أرسطو ، وسيطرت تفسيراتهم المسيحية على الفكر فى العصور الوسطى . ولسنا فى حاجة إلى إكمال تلك القصة ، فبقيتها معروفة .

ومما ينبغى ألا يغيب عن البال أن عدداً ضخما من العلماء قاموا بشرح آراء أرسطو . أولا باللغة اليونانية ، وبعدئذ بالعربية ، وأخيراً باللاتينية ، واللغات المحلية فى غرب أوربا ، واشترك فى التفسير شراح وثنيون ، وبعدئذ مسلمون ويهود ومسيحيون . كان أرسطو فى نظر الشراح المسيحيين الأستاذ الأكبر أو « أستاذ الذين يعلمون »[٥٩] ، إذا قال ، فقوله الحجة البالغة تنعقد إزاءها الألسنة ، وهذا عطل الفكر وعاقه عن التقدم . ويبدأ تاريخ العلم الحديث بالثورة على أرسطو .

بعض مظاهر فلسفة أرسطو :

تعترض دراسة سيرة طويلة صعاب كثيرة ، ينشأ أكبرها عن تغير الموضوع بمرور الزمن . فأرسطو كما عرفه شيشرون لم يكن هو أرسطو الذى شرحه الإسكندر الأفروديسى . ولم يقرأ الكندى فى القرن التاسع كتب أرسطو التى قرأها ابن رشد فى القرن العاشر ، أو أنهما قرآها وهما فى أحوال نفسية مختلفة ، وليس أرسطو الذى امتدحه القديس توماس الأكوينى فى القرن الثالث عشر هو أرسطو الذى ذمه راموس فى القرن السادس عشر أو جاسندى فى السابع عشر . ولقد مرت أوقات بلغ فيها الانتصار لأرسطو والإنكار عليه مبلغاً أصبح معه النقد النزيه لمؤلفاته أمراً مستحيلاً . والآن وقد خمد كل ذلك ، ولم يعد فى الإمكان إحياؤه حتى فى المعاهد المخصصة لدراسة فلسفة العصور الوسطى ، ففى وسعنا أن نتبين أرسطو على حقيقته ، وأن نرى أن علمه أو حكمته لم تحط بكل شىء كما اعتقد بعض الناس ، وأنه لم يكن متعنتاً ولا مخرفاً كما اتهمه خصومه .

وسندرس فى الصفحات التالية آراء أرسطو العلمية وخدماته الجليلة للعلم ، لكن ينبغى الآن أن نحاول إظهاره كاملا . ولعل أيسر السبل إلى ذلك هو مقارنته بأستاذه القديم أفلاطون . اقتصرت ثقافة أفلاطون العلمية على الرياضيات والفلك ، على حين تركزت معظم ثقافة أرسطو فى النواحى الطبية . وانتمى أبوه نيقوماخوس إلى رابطة سكليبيوس ، فانتقلت التقاليد الطبية من الأب إلى الابن مباشرة . ولعل أرسطو وهو صبى عاد المرضى فى رفقة أبيه أو عاونه فى إجراء العمليات الجراحية لهم . وعلى أى حال ، لم يكن هناك مناص من أن يعرف صبى نابه مثله الشىء الكثير من فم أبيه وأن يستوعب النظرية التجريبية بالذات . وربما يكتفى الرياضى — ولا سيما إذا كان عالماً فى منزلة أفلاطون ، متأثراً بنظرية الأعداد الفيثاغورية — بآراء استنتاجية عن الوجود . ولكن الطبيب سرعان ما يدرك أنه ينبغى ألا يسرف فى افتراضاته وتكهناته ، وإنما ينبغى أن يلاحظ ويدون ملاحظاته ويتروى فى استنتاجاته . كان أفلاطون خيالياً مرهف الحس[٦٠] ،

على حين كان أرسطو ذا عقلية عملية من الصعب التغلب عليها . لكن يجب ألا ننسى أن أرسطو بدأ حياته الفكرية تلميذاً لأفلاطون ، ولم يتخلص قط تخلصاً تامًّا من بعض الأوهام الأفلاطونية . وفى رأيى أن هذا دليل عظمته ، فلم يكن قط يقينيًّا كأستاذه ، ومع هذا أحس بأسرار الحياة إحساساً عميقاً ، حتى إنه ظل إلى حد ما ، أفلاطونيًّا فى معارضته لأفلاطون المتزايدة على مر الأيام .

وقد ألم أرسطو بطرف من الطقوس السرية فى الديانة اليونانية ، وقارن كأفلاطون المعرفة الحدسية بالاطلاع على العبادات السرية ، ولكنه تجنب التهويلات الصوفية ، وقدر قيمة التحمس الدينى والطقوس الغامضة والشافية من العلل ، بيد أنه حاول أن يصوغ منها مذهباً عقليًّا من الممكن إيصاله للغير . وأدرك وجود نوعين من المعرفة (الحدسية والعقلية) ، ونوعين من الحياة النفسية (الفكرية والعاطفية) . لكن الحياة العاطفية ، مع أهميتها ، ينبغى تنظيمها بضبط النفس بدل إثارتها بالطقوس الصاخبة . ويحدثنا كليارخوس السولى ، أحد تلاميذ أرسطو ، أنه اقتنع بعد حضوره إحدى جلسات التنويم المغناطيسى ، بإمكان انفصال الروح عن الجسد[٦١] . وذلك دليل على اتساع أفقه ، ولكنه حرص دائما على أن يفسر الأشياء تفسيراً علميًّا . وكان ما تبقى فى نفسه من إيمان بالباطنية أشبه بإيمان كبار العلماء فى كل عصر ، لا ينسيهم تواضعهم وفطنتهم أن مشاكل الكون معقدة تعقيداً لا حد له[٦٢] .

وقد توصف إحدى نظرياته الأساسية ، وهى التى يعبر عنها بالنظرية الغائية ، بأنها صوفية ، لأنه لا يمكن إثبات صحتها إثباتاً قاطعاً . ويتمثل فى هذه النظرية ما بين أفلاطون وأرسطو من علاقة ، لأنها مأخوذة عن نظرية أفلاطون عن « المثال » أو « الصورة » التى تسبق وجود « الهيولى » ، والتى تتولد عنها هذه تولداً ميتافيزيقيًّا . يرى أرسطو أن « الصورة » هدف لا سبيل إلى تحقيقه ، ويقرن أفلاطون التغير بالفساد ، ولكن أرسطو ، على النقيض من ذلك ، يتصور التغير على أنه حركة سائرة إلى الكمال . وينكر أفلاطون إمكانية التطور ، وأرسطو يسلم بها . فالأشياء تتطور بسبب القوى الكامنة فيها ، وهى تتغير لتبلغ الكمال

أو تقرب منه . والمثال أو الصورة كامنة فى الشيء (كالقوة النامية فى الجنين) ، لا خارجة عنه . ومصير الشيء مقرر بماهيته الخفية غير المدركة . ويسير التطور سيره لا بسبب علل مادية تؤدى إلى نتائج طبيعية ، تدفعها بقوة من الخلف ، بل بسبب علل غائية تجذبها قدماً بقوة من الأمام . وجميع الكائنات موجهة إلى غاية (كامنة فيها) . ونموها مرسوم بغاية . ويتحقق العالم تدريجياً بغاية علوية ، أو سمها عناية إلهية .

وأدرك أرسطو أن الآلية mechanism والغائية مظهران يكمل أحدهما الآخر ولا سبيل إلى انفصالهما. وفى دراستنا للطبيعة ينبغى أن نبحث عن تفسير آلى أو علة رئيسة ، فتارة نجد العلة الآلية أكثر وضوحا وتارة أخرى تتضح العلة الغائية . ولما كانت الآلية على أيامه (مثال ذلك الآلية الفسيولوجية) أمراً بعيداً عن التصور ، فلم يبق إذن سوى التعليل الغائى .

مثل هذا التفسير فى نظر عالم مجرب من علماء اليوم ضرب من اللغو . وسيقول إنه من العبث أن نسأل « لماذا » ، ويكفى أن نجيب عن « كيف » إجابة دقيقة بقدر الإمكان . وقد حاول أرسطو قبل الأوان أن يجيب عن « لماذا » ، مقدماً هذا السؤال على غيره من الأسئلة . أكان أرسطو مخطئاً كل الخطأ ؟ لعله تعجل فى إثارته ، ولكن السؤال ليس عديم الجدوى ، فله قيمته الاستدلالية عند الوصول إلى نتائج تقريبية . ومما يذكر لأرسطو بالفخر : ١ — أن نظريته الغائية أرقى بكثير من نظرية أفلاطون عن الصور أو المثل الأصلية ، ٢— أن تعليلاته الغائية ، مع قصورها ، نافعة جداً ، فكل عالم يطبقها عن قصد أو غير قصد . فغاية العضو تعيننا على فهم تركيبه ووظيفته ، ٣ — إن أنصار مذهب تفسير الحياة تفسيراً حيوياً يستعملون لغة غائية، ولا يزال كثير منهم بيننا فمن المستحيل التخلص من هذه النظرية التى تتفادى كل الضربات ، وتعود إلى الظهور فى صورة جديدة ، ٤ — وأخيراً ، إذا سلمنا بالعناية الإلهية. فلا سبيل لنا إلى إنكار الغائية .

وظواهر الطبيعة الغائية واضحة كل الوضوح ؛ أهى تقابل حقيقة باطنة

أم هى مجرد أوهام ؟ يمكن وضع السؤال كالآتى : أصحيحة حجة الغائية أم باطلة ؟ إن أرسطو أول من استعمل تلك الحجة وأولاها أهمية كبيرة ، فمن يكون آخر من يستعملها [٦٣] ؟ إن مذهب أرسطو الغائى هو أحد الأدلة على عبقريته .

وقد تضمن المذهب الغائى نظرية التطور ، وهو تطور نحو غاية ، أى نحو التقدم . ولفهم الكائنات يجب أن ندرك كنه غايتها ، ونشوئها ، وارتقائها . لقد طبق أرسطو هذه النظريات فى دراسة التاريخ الطبيعى لا التاريخ الإنسانى ، ولولا ذلك لكان فى طليعة مؤرخى العلم .

كان أرسطو أولا وقبل كل شىء جامعاً لموسوعة ، وكان باستثناء ديموكريتوس أول من قام بذلك . وقد حاول الفلاسفة الأوائل تفسير الوجود ، ولكن أرسطو الذى شاركهم فى هذا المطمح ، كان أول من أدرك أنه ينبغى أن يسبق هذا التفسير بقائمة تفصيلية مع وصف كامل لمحتوياتها بقدر الإمكان . وهو لم يدرك فقط تلك الحاجة ، بل مثار العجب أنه سدها . ومؤلفاته فى مجموعها موسوعة تنتظم المعارف الميسورة ، ومعظمها حصل عليه بنفسه أو بتوجيهه . ومن السهل أن يجد الإنسان ثغرات أو أخطاء فى تلك الموسوعة ، ولكن المثير للدهشة أنها كانت جيدة ، شاملة ، طويلة الأجل .

ويتضمن معنى تأليف موسوعة ما الاعتقاد بأن هناك نوعاً من الوحدة والنظام فى الوجود وأن تتسم معرفتنا به بنفس هذه الوحدة وهذا النظام . وتتحقق الوحدة بدراسة المبادئ الأولى (الفلسفة والإلهيات) ، ويتحقق النظام بالتصنيف السليم والوصف الدقيق .

وأما عن المبادئ الأولى ، فهناك نفس فى كل كائن حى ، وفى كل نفس شىء إلهى ، شىء متصل بالعقل المحض . والله موجود لأنه هو المبدأ الضرورى وغاية كل الكائنات ، والمحرك الأول . وكل حركة وكل حياة هى اندفاع هائل نحو الكمال ، نحو الله . وهذا الاندفاع غير واضح فى الكائنات الدنيا ، ولكنه يزداد وضوحاً فى البشر وفقاً لدرجة ذكائهم . وقد يؤدى ذلك كله ، أوجله ، إلى نشأة

اللاهوت الفلسفى والتصوف ، وقد أدى إليها مع الزمن ، ولكن واقعية أرسطو واعتداله كبحا جماح هذه الأفكار . وقد كان أرسطو هو السابق إلى تصنيف فروع العلم المختلفة ، إلى نظرية وإنتاجية عملية. وليس للفروع النظرية من هدف سوى إدراك الحقيقة وتأملها ، وهى تشمل الرياضيات والطبيعيات والميتافيزيقا (وفى مقدمتها الفلسفة واللاهوت) ، والإنتاجية تشمل الفنون ، أما الفلسفة العملية فتعنى بتنظيم السلوك الإنسانى ، وفرعاها الرئيسان هما الأخلاق والسياسة . وقد ترك هذا التصنيف مع قصوره أثرا عميقاً فى تاريخ الفلسفة والعلم إلى يومنا هذا [٦٤] .

كانت موسوعة أرسطو بالقياس إلى موسوعاتنا عملا بدائيًّا جدًّا . فقد اعتقد أنها تتم بجمع التعاريف (وهذا هو سبب استعمالى تركيب « قائمة تفصيلية » ، من قبل) ، وكانت هذه التعاريف لفظية لا تفسيرية بالمعنى الصحيح. ولئن بدا لنا هذا العمل غير كاف إطلاقاً ، فلا يغيبن عنا وجوب البدء بمثل هذه القوائم التفصيلية ، ثم تفسيرها تدريجيًّا تفسيراً معنويًّا عميقاً [٦٥] .

ومن الميسور أن نعرف الشىء معرفة علمية إذا عرفنا علله ، وعلته الرئيسة هى ماهيته [٦٦] . فعلينا أن نفحص أنواعاً متباينة من الشىء الواحد ، ومعنى هذا إحصاء خواصه ووصفها. فالقضايا العامة لاتثبت بالاستدلال بل تستقرأ من ملاحظة أنواع شتى من الأشياء . وقد جمع أرسطو وزملاؤه طائفة كبيرة من الملاحظات وحللوها ووصفوها بدقة ، ثم فسروها تفسيراً لبقاً . فكان جانب كبير من مصطلحاتهم العلمية ملائماً للغرض ، ولا يزال مستعملا فى اللغات الحديثة . وإن كانت المصطلحات فى معظم الأحيان متكلفة ، لكن من المؤسف أن البحث عن ماهية الأشياء مهد الطريق لعلوم ما وراء الطبيعة ، كما كانت التفسيرات غالباً لفظية ، والإحصاءات غير كاملة. ولكن أرسطو لم يدرك هذا النقص ، فكثيراً ما ختم إحصاء معيناً بقوله « وليس وراء ذلك شىء آخر » وظن أنه أقرب إلى الهدف مما كان فى الواقع ، أو مما كان ميسوراً له . وهذا أمر طبيعى ، فإن مدرسته قامت بالشىء الكثير حتى ليلتمس لها العذر فيما توهمته ، وأما توهم حقائق كاملة فأمر لا يغتفر اليوم .

لقد حظيت تلك الفلسفة بالقبول لأنها متسمة بروح الواقعية والاعتدال ، وكان حب أرسطو للنظام والوضوح والترتيب و «الطريق الوسط » يستهوى العقل اليونانى . وعندما ازداد الشعور الدينى بعد انقضاء أيام الوثنية لم يعد الأمر يتطلب سوى التوفيق بين فلسفته وبين العقائد اللاهوتية لدى الأمم الأخرى ، حتى تبقى لفلسفته الحظوة لدى الجماهير ، وقد قام بمحاولة هذا التوفيق مختلف العلماء ، أمثال ابن رشد من المسلمين ، وابن ميمون من اليهود ، والقديس توماس الأكوينى من المسيحيين .

وقد قيل أحيانا إن فلسفة أرسطو ، بالقياس إلى الاتجاهات الصوفية ، تعوزها الإنسانية ، والرقة ، والمثل نفسها . وهذا كلام مضلل . فالمثل الأعلى لفلسفته هو المثل العلمى ، أى اكتشاف الحقيقة . وهو مثل بعيد دائماً عن مرمى الناس ، ولكنه نبراس وسط الظلام . ومنهج أرسطو فى العلم بالقياس إلى منهجنا قاصر كل القصور ، ولكن ذلك كان أمراً لا محيص عنه . وقد اتهم بأنه من متوسطى المفكرين لجنوحه إلى الحلول الوسطى والتوفيق بين المتناقضات ، وبعبارة أخرى لأنه كان مجرداً من المثل . وذلك فيما أرى بعيد عن الإنصاف ، كل البعد . فقد حاول جهده الوصول إلى الحقيقة ، ولم يكن فى وسعه أن يدرك بوضوح وقوة ، كما ندرك اليوم ، أن الحقيقة (العلمية) لا سبيل إلى بلوغها ، وإن كنا ندنو منها دائما .

الأرجانون : The Organon

من الغريب حقًّا أن أرسطو لم يدخل المنطق فى تصنيفه ، واعتبره بمثابة مقدمة خارجة للفلسفة والعلم . ومع هذا فقد خصص له طائفة من المباحث تتألف منها مداخل رائعة لسائر مؤلفاته .

هذه المباحث ، وهى لا تقل عن ستة (المقولات ، العبارة ، التحليلات الأولى ، التحليلات الثانية ، الجدليات ، تنفيذ الحجج السفسطائية) تسمى « الأرجانون » البيلوسة وهى البحث الفلسفى ، لا وسيلة مثلها أهم منها . هذا الكتاب

وإن كنا الآن لا ندرس المنطق فيه ، ومن اليسير أن نكشف مواطن الضعف فيه ، وفى مقدمتها حشوه اللفظى — مؤلف مدهش ، بل لعله أعظم مؤلفاته الكثيرة التى جعلته صاحب الفضل علينا ، ولذلك فهو أبقاها على زمن. ابتكر أرسطو علم المنطق وكتب مباحثه الأولى . وهى مباحث تحار الألباب فى تعقدها ودسامتها .

وتتناول هذه المباحث بالتمحيص والتحليل مسائل كالمقولات العشر أو المحمولات (الجوهر ، الكم ، الكيف ، الإضافة ، المكان ، الزمان ، الوضع ، الملك ، الفعل ، الانفعال) ، والقضايا من حيث هى سالبة أو موجبة ، كلية أو جزئية ، وعكسها ، والقياس وصوره الصحيحة ، والبرهان عن طريق الاستدلال ، والاستقراء ، وأنواع المغالطات ، ومنهج التحليل المنطقى السليم ضد المنهج الجدلى (علم الكلام) . وكان السفسطائيون قد بحثوا جميع هذه المسائل من قبل أرسطو ، ثم بحثت بطريقة منظمة فى الأكاديمية واللیكيوم ؛ بيد أن أرسطو كان أول من جمع شتات هذه المسائل ليدرك الناس أهميتها من حيث هى مقدمات للعلوم ، وليمد العالم الغربى بوسيلته الفكرية الأساسية ، وهى مفتاح جميع أبواب البحث الفلسفى والعلمى .

ومن السهل إساءة استعمال هذه الوسيلة كما أساء علماء اللاهوت استعمالها ، وكما فعل ويفعل المناطقة المولعون بالمنطق لذاته ، بيد أننا لا نستطيع أن نلوم أرسطو على ذلك . وليس ثمة شك ، من ناحية أخرى ، فى أن صيته العريض ونفوذه الهائل ، فى العصور الوسطى وبعدها ، كان إلى حد كبير يرجع إلى كتابه الأرجانون . ولما كان ذلك الكتاب يبحث فى مسائل عقلية مجردة ، فقد أثر تأثيراً مزدوجاً فى بعض قرائه بأن ثبط هممهم وبعث فى نفوسهم الرهبة من مؤلفه . وكثيراً ما شاهدنا هذه الظاهرة المتناقضة فى العصر الحديث — شاهدنا بعض من حار لبهم فى فهم مؤلفات عالم من علماء الرياضة يسلمون بصحة آرائه الفلسفية تسليما أعمى [٦٧] . فقد حسبوا فيما يبدو ، أنه إزاء عجزهم عن فهم رياضياته ، ليس ثمة ما يدعوهم إلى محاولة فهم فلسفته ، فسلموا بصحة الأخيرة كما سلموا بصحة الأولى . وكان من الطبيعى أن يصبح مؤلف كتاب الأرجانون فى رأى جمهور العلماء أستاذ العلوم جميعاً .

هوامش الفصل التاسع عشر

(١) A. Meillet and Marcel Cohen, Les langues du monde (Paris, 1924), pp. 47, 52 [Isis 10, 298 (1928)].

(٢) هذا إذا كان برديكاس الأول هو أولهم ، ولكنه يعتبر التاسع إذا كان كرانوس هو أول هؤلاء الملوك . وقد اتبعت فى ذلك القائمة الواردة فى :

A. M. H. J. Stokvis, Manuel d'histoire, de généalogie et de chronologie de tous les états du globe (3 vols.; Leiden, 1888-1893), vol. 2, pp. 448-450.

(٣) نقول بهذه المناسبة إن من الغريب ، أن أغلب الدكتاتوريين كانوا دخلاء أو أجانب ، مثال ذلك : فيليب المقدونى ، نابليون الكورسيكى ، محمد على الألبانى ، وهتلر النمسوى ، وستالين الجورجى .

(٤) سميت هذه الخطب « بالفيليبيات » ، والصفة « فيليبى » فى كثير من اللغات الأوربية مأخوذة عنها . وتستعمل هذه الكلمة للدلالة على الخطب السياسية التى تندد بخصم بعينه وهى عادة مليئة بالطعن. واستعملت بالذات للدلالة على خطب شيشرون الكثيرة التى ألقاها ضد أنطونيوس . وقد تعرض لنكولن ، وودرو ولسن وفرانكلين روزفلت لكثير من الحملات الخطابية العنيفة أو « الفيليبيات » .

(٥) لو أن فيليبيات معاصره ثيوبومبوس الخيوسى (النصف الثانى من القرن الرابع ق. م .) وصلتنا لعرفنا عن فيليب الشىء الكثير . وتناولت هذه الفيليبيات (وهى غير خطب ديموستنيس المشهورة) سيرة فيليب الثانى ، وفى الواقع تاريخ جميع بلاد الإغريق ، وتعتبر مكملة لتاريخ كسينوفون ، لأنها تناولت الفترة من عام ٤٦٢ حتى ٣٣٦ . وأسلوب الكتاب منمق أجوف ، ولكن ثيوبومبوس كان غزير المعلومات ، سليط اللسان . ويعتبر أحد واضعى أسس التاريخ النفسى ، ورائداً فى هذا المضمار للمؤرخ تاكيتوس (النصف الثانى من القرن الأول). وهو لم يتملق فيليب وإن كان فى رأيه أعظم شخصية عرفها العالم ، بل صور نقائصه وحياة جلسائه المنحلة تصويراً بشعاً . انظر R. H. Eyssonius Wichers, Theopompi Chii fragmenta (308 pp.; Leiden, 1829). وعلى سبيل المثال ، انظر قصاصة رقم ٢٤٩ حيث يصف فى عبارات مقذعة فساد بلاط فيليب .

(٦) خالكيس هى كبرى مدن يوبيا وتقع عند أضيق نقطة فى مضيق يوريبوس وهو يفصل يوبيا عن بيوتيا فى بلاد اليونان. وبلغ من ضيق المضيق عند خالكيس أن أنشئت عليه قنطرة سنة ٤١١ ق . م .

(٧) ألقى ديموستينس الفيليبية الأولى فى سنة ٣٥١ والخطب الأولنثية الثلاث فيما بين سنة ٣٤٩ وسنة ٣٤٨ ألقاها دفاعاً عن أولينثوس (فى خالكيديكى) وكان قد هددها فيليب . ولم يكن فى وسع أرسطو ألا يغضى عن مصير مدينة قريبة جداً من مسقط رأسه ، ولكنه كان بحكم نشأته من أنصار الحزب المقدونى . وكان ديموستينس معاصراً لأرسطو (٣٨٤ — ٣٢٢) .

(٨) Diogenes Laertios, v, 2 ، ترجمة ر . د . هيكس (R. D. Hicks) فى مجموعة لويب الكلاسيكية (Loeb Classical Library)

(٩) رويت قصة أخرى يصعب تصديقها ، وإن كانت محتملة فى :

Lychnos (Upqsala, 1945), p. 253.

(١٠) الرسالة السادسة لأفلاطون موجهة إلى هرمياس وإيراستوس وكورسيكوس . نشرها ر . ج . بيورى (R. G. Bury) وترجمها فى مجموعة لويب الكلاسيكية — أفلاطون ، المجلد ٨ (١٩٢٩) ، ص ٤٥٦ — ٤٦١ .

(١١) كانت أسوس تقع فى أراضى هرمياس ، وكانت قلعة حصينة وميناء فى مواجهة لسبوس ، وفيها ولد كليانثيس الرواقى (النصف الأول من القرن الثالث ق . م .) .

(١٢) Diogenes Laertios, v, 1.

(١٣) F. Studniczka, *Das Bildnis des Aristoteles* (35 pp., 3 pls.; Leipzig, 1908). ولى فيها بحث فى *Lychos* (1945), pp. 249-256 . ومقال ستودينشكا مثل واضح على الحذلقة والنفلة، ولكنه خدع كثيرين من فقهاء اللغة، ومن بينهم ييجر (انظر كتابه بعنوان أرسطو ص٣٢٢ ، هامش ١٦) .

(١٤) Diogenes Laërtios, v, 11-16

(١٥) يجب أن نعيد ما قلناه من قبل وهو أنه من العسير تحديد مدى ذلك الوقت . فقد يلتحق شخص بمدرسة ويظل عضواً موالياً لها مدة من الزمن ، ثم يفتر تحمسه ولا يحضر إلا قليلا من اجتماعاتها وبعدئذ يكف عن الحضور ، وأخيراً يعلن تمرده عليها . فهل هناك سبيل إلى معرفة عدد فترات الولاء والتمرد ، وحتى على وجه الدقة ينتقل الشخص من الواحدة إلى الأخرى .

(١٦) الباحث الرائد فى مؤلفات أرسطو الأولى هو فيرنر ييجر (Werner Jaeger) وكتابه الذى مهد به الطريق ظهر فى برلين عام ١٩٢٣ . وإذا أشرنا إليه فإنا نشير إلى الطبعة الإنجليزية المترجمة عن الألمانية بعنوان :

Aristotle. Fundamentals of the history of his development (410 pp.; Oxford : Clarendon Press, 1934).

راجع أيضاً

Ettore Bignone, L'Aristotele perduto e la formazione filosofica di Epicuro (2 vols., Florence : Nouva Italia, 1936).

Joseph Bidez, Un singulier naufrage littéraire dans l'antiquité (70 pp.; Brussels : office de Publicité, 1943) [(Isis 36, 172 (1946)].

وقد نشر فالنتين روز (Valentin Rose) المصادرات بعنوان :

Aristotelis fragmenta qui ferebantur librorum (Leipzig 1886)

كما نشرها ريتشارد فالزر (Richard Walzer) بعنوان :

Aristotelis dialogorum fragmenta in usum scholarum selegit (Florence: Sansoni, 1934).

(١٧) أطلق عليها شيشرون (النصف الأول من القرن الأول ق . م .) اسم exōtericos فى إحدى رسائله إلى أتيكوس عام ٧٠٠ من تأسيس المدينة (روما) أى سنة ٥٤ ق . م . :

Epistolae ad Atticum, iv, 16

(١٨) كان يوديموس القبرصى ، تلميذ أفلاطون ، عضواً بالأكاديمية ، واستعان به ديون فى ثورته على ديونيسيوس الأصغر . وقتل يوديموس فى إحدى المعارك التى نشبت حول سيراكوز عام ٣٥٤ . وهو غير يوديموس الرودسى (النصف الثانى من القرن الرابع ق . م .) الذى كان أصغر منه سناً وازدهر نشاطه حوالى سنة ٣٢٠ وتتلمذ لأرسطو ونشر فيما يرجح « الأخلاق إلى يوديموس » .

(١٩) Protrepticos eis philosophian أى الحث على (دراسة) الفلسفة .

(٢٠) كان فيليب الأوبوسى (النصف الأول من القرن الرابع ق . م .) ، كأرسطو ، تلميذاً

لأفلاطون . ولعله كان أصغر من أرسطو أو أكبر منه سنًّا. ولا ندرى إن كانت « الإبينوميس» قد كتبت بعد « البروتربتيكوس » مباشرة ، أم قبلها .

(٢١) كلمة Hortensius هى المرادف اللاتينى لكلمة protrepticos اليونانية ، ولكنها لم تستعمل فى غير ذلك المكان ، والكلمة المستعملة هى hortatorius

(٢٢) St. Augustine, Confessions, III, 4; viii, 7.

(٢٣) نحن المحدثين الذين نستطيع أن نقرأ اليوم تاريخ التغييرات الفلسفية المتتالية التى حدثت خلال ثلاثة آلاف سنة ، لا يسعنا إلا أن نفكر ، كما فكر أرسطو ، عند ما كان محدثاً ، فى هذا التكرار الدورى .

(٢٤) المصطلح الفنى هو endelecheia بمعنى استمرار أو دوام وقد خلط الناشرون بينه وبين كلمة entelecheia بمعنى الحقيقة التامة أو الكاملة . وهى ليست واردة فى فهرست بونيتز ! (أنظر Bonitz'Index *aristotelicus* Bidez, *Un singulier naufrage littéraire*, pp. 33-37.)

(٢٥) اختلفت آراء أرسطو الأخيرة فى النفس كل الاختلاف عن آرائه الأولى الأفلاطونية . وانتهى آخر الأمر إلى أن النفوس ، وهى « صور » الأجسام المادية ، لا تبقى بعد الأجساد إلا بقدر ما يبقى البصر بعد فقد العين . على أن فى نفس الإنسان شيئاً يأتيها من الخارج ، وهو جزء من العقل المحض . وعند ما يموت الإنسان يعود هذا الجزء إلى العقل الكلى (الله) ، ويندمج فيه . فهناك إذن نوع من الخلود غير جسدى .

(٢٦) قصاصة رقم ١٠ ، نقلها إلينا سكستوس امبيريكوس (النصف الثانى من القرن الثانى).

(٢٧) Jaeger, Aristotle, p. 166

(٢٨) كما فعل كلود برنارد . فإلى عهد قريب جداً كان معظم التعليم الذى يتلقاه فى المدارس الثانوية من يتطلعون إلى أن يكونوا من رجال العلم مقصوراً على الدراسات الإنسانية . ومن ثم فالنماذج الأدبية هى التى أذكت طموح شبابهم ولم تتجه عبقريتهم العلمية وجهة صحيحة إلا مؤخراً . فكانوا إلى حد كبير فى الوضع الذى كان فيه أرسطو .

(٢٩) كان نايوس تلميذاً لأرسطو وثيوفراستوس ، وابن كورسيكوس ، صديق أرسطو وزميله فى أسوس .

(٣٠) أرقام المجلدات تشير إلى الطبعة الإنجليزية ، وأما أرقام الصفحات فتشير إلى طبعة بكر .

(٣١) الحس والمحسوس . الذاكرة والتذكر . النوم واليقظة . الأحلام . تعبير الرؤيا . طول العمر وقصره . الشباب والشيخوخة . الحياة والموت . التنفس .

(٣٢) Frederic George Kenyon (1833-), Aristotle on the Constitution of Athens (British Museum, 1891, third and rev. ed., 295 pp., British Museum, 1892).

وقد نشر المتحف البريطانى صورة طبق الأصل للبردية كلها فى سنة ١٨٩١ . ويجد القارىء قائمة وافية بالمراجع فى طبعة كينيون .

(٣٣) Michael Stephanides, "Aristotle as a poet", Practice of the Academy of Athens (1950), pp. 249-253.

وهو باليونانية الحديثة .

ويقول الأستاذ استفانيدس إن كتاب « العالم » قد صيغ فى أسلوب بالغ الأناقة ، وإن الإسكندر الذى قدم له الكتاب كان فيما يحتمل هو تلميذ أرسطو ، الإسكندر الأكبر . وهذا لا يتفق مع ما انتهى إليه فيلهلم كابيل (Wilhelm Capelle) فى Neue Jahrbücher 15, 529-568 (1905) من أن كتاب « العالم » يستند إلى مبحثين لبوسيدونيوس (النصف الأول من القرن الأول ق . م .) ومن

الطريف أن دانيل هينسيوس ، اللغوى الهولندى المعروف ، اتخذ من وضوح أسلوب كتاب « العالم » حجة لتفنيد نسبته إلى أرسطو ، فهو يقول « إن البحث الذى نحن بصدده يخلو من ذلك الغموض المهيب الذى يصدم الجهة فى مؤلفات أرسطو (الفقرة كما اقتبسها فرانسوا أراجو فى تابينه لحاى لوساك (Oeuvres, vol. 3, p53.

(٣٤) المجلدات ١ – ٢ (١٨٣١) : النص اليونانى ، المجلد ٤ (١٨٣١) : التراجم اللاتينية ، المجلد ٤ (١٨٤٦) : الحواشى اليونانية ، المجلد ٥ (١٨٧٠) : الفهرس .

(٣٥) من المؤسف أن أكسفورد ، عند إعادتها طبع نص بكر ، لم تتبع ترقيم صفحاته . وهذا خروج عن المألوف يكاد لا يصدقه العقل .

(٣٦) أفضل كتاب هو :

William Woodthorpe Tarn, Alexander the Great (2 vols.; Cambridge University Press, 1948).

المستند على دراسة دقيقة متزنة لجميع المصادر .

(٣٧) اتهم الفرس بتدبير اغتيال فيليب كما اتهمت به أوليمبياس مدفوعة بعامل الغيرة . ولا سبيل إلى إثبات أى من الاتهامين ، فأحدهما أو كلاهما قد يكون صحيحاً .

(٣٨) كثيراً ما حدث أن صار معلم الأمير صديقاً ومستشاراً للملك . مثال ذلك ، نيقولا أوريسمى (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) ، معلم شارل ولى العهد ، أصبح مستشاراً لشارل الخامس ، (انظر « المقدمة » بالمجلد الثالث ، ص ١٤٨٦) .

(٣٩) كاليستينس مواطن أولينثوس (وهى مدينة فى شبه جزيرة خالكيديكى) رافق الإسكندر مؤرخاً للحملة ، وأشاد بسياسة الإسكندر فى توحيد جميع اليونان . ولما وقعت بينهما القطيعة أعدم كاليستينس بتهمة الخيانة .

(٤٠) تقع اسوس فى قليقية عند طرف خليج اسوس ، وهو الركن الشمالى الشرقى للبحر المتوسط . وهى خارج آسيا الصغرى والمدخل إلى سوريا من طرفها الشمالى .

(٤١) كان برسيوس (حكم من سنة ١٧٩ إلى سنة ١٦٨) الثالث والأربعين من ملوك مقدونيا وآخرهم . ولم يكن ملكاً مغموراً ، غير أن الموقف الذى واجهه كان ميئوساً منه . وظلت المملكة المقدونية قائمة ٥٣٢ عاماً .

(٤٢) اقتبست هذه الملاحظة من تارن وهو يتوسع فى شرحها (المجلد الأول ، ص ٩) .

(٤٣) انتهج نابليون هذه السياسة ، وأما هتلر فكان بلا ريب يرمى إلى استعباد غير الألمان أو استئصال شأفتهم .

(٤٤) وما شأن أرسطو ؟ وإلى أى حد كان يونانيا أو متبربراً ؟ من المستحيل الاهتداء إلى ذلك

(٤٥) أوبيس على نهر الدجلة . لما بلغ الإسكندر ذلك المكان ، تمرد الجيش ، فألقى فى الجنود خطاباً شرح فيه سياسته واستطاع أن يبعث فيهم التوكل عليه . انظر :

Tarn, *Alexander the Great*, vol. p. 115

وقد شيدت سليوكيا ، عاصمة الإمبراطورية السليوكية ، على مقربة من أوبيس حوالى سنة ٣١٢ ، وغدت – بعد أن وصلت بنهر الفرات قناة – مركزاً تجارياً عظيماً ، وحصناً أمامياً من حصون الحضارة اليونانية فى الشرق .

(٤٦) يرى ييجر فى كتابه (*Aristotle*, p. 24) أن حوار أرسطو القديم عن « الإسكندر » أو « الاستعمار » ربما عالج فيه الفيلسوف سياسة الإسكندر غير العنصرية ونقد بها .

(٤٧) Plutarch, Lives, Alexander, 14 . الترجمة بقلم برنادوت بيرين فى مجموعة لويب الكلاسيكية ، مجلد ٧ ، ص ٢٥٩ .

(٤٨) وفى رأى تارن (المجلد الثانى ، ص ٤٠٩) « أن شيئاً من ذلك لم يحدث » .

(٤٩) كما ورد فى بلينيوس (النصف الثانى من القرن الأول) ، والظاهر أن روايته عن مساعدة الإسكندر مبالغ فيها (Natural history, viii, 17) . وسنستشهد بفقرات منها فى فصل آخر . ويقول اثينايوس النقراطيسى (النصف الأول من القرن الثالث) « أن الاسطاغيرى تسلم ٨٠٠ تالنت من الإسكندر لمتابعة بحثه فى الحيوان . (Deipnosophistai, ix, 398 E)

(٥٠) A. Foucher, L'art gréco-bouddhique du Gandhāra (2 vols.; Paris 1905-1918); The beginnings of Buddhist art (Paris, 1917). J. P. Vogel, Buddhist art (Oxford: Clarendon Press, 1936).

(٥١) قابل اصطباغ الفن الشرقى بالغربى فى جندهارا اصطباغ الفن الغربى بالشرقى بعد ذلك بعدة قرون فى الشرق الأوسط ، والذى ضرب لنا المرحوم جوزيف شترتز يجوفسكى (١٨٦٢ – ١٩٤١) أمثلة كثيرة عليه . والتطابق غريب : فالفن البوذى القديم تأثر بالفن الغربى ، وتأثر الفن المسيحى الأول بالفن الشرقى .

(٥٢) Iskandar-nāma, *Encyclopedia of Islam*, vol. 2 (1921), p. 535.
عن الأسطورة القديمة لكاليستينس الزائف ، انظر :

Tarn, *Alexander the Great*, vol. 2, by index

(٥٣) نهر هيداسبيس (أو جيلوم) ، أحد فروع السند فى حوض البنجاب . أسس الإسكندر مدينة بوكيفا لا إحياء لذكرى جواده على مقربة من البقعة التى نفق فيها . ويروى بلوتارخوس (حياة الإسكندر ، ٣٢) « أن الإسكندر كلما خرج لينظم بعض وحدات فيلقه أو يستحث جنوده أو يصدر إليهم تعليماته أو يستعرضهم ، كان يريح بوكيفالوس ، الذى تخطى وقتئذ ربيع عمره ، ويركب جواداً غيره . لكن كلما خاض غمار معركة ، جيء ببوكيفالوس ، فيركبه ويشرع فى الهجوم على الفور .

(٥٤) الطريق المؤدى إلى كيفيسيا ومراثون . والمتحف البيزنطى الحالى قريب من مكان الليكيوم القديم .

(٥٥) Aulus Gellius, xiii, 5.

(٥٦) Diogenes Laërtois, v.

(٥٧) فى رأى فيلهلم كابيل أن كتاب « العالم » ألف فى النصف الأول من القرن الثانى : *Neue Jahrbücher* 15, 529-568 (1905).

(٥٨) عن التراجم اللاتينية ، انظر :

Amable Jourdain, Recherches critiques sur l'âge et l'origine des traductions latines d'Aristote (Paris, 1819; ed. 2, 1843). Alexandre Birkenmajer, "Classement des ouvrages attribués â Aristote par le Moyen âge latin" (Prolegomena in Aristotelem latinum consilio et impensis Academiae Polonae litterarum et scientairum edita, 1, 21 pp.; Gracovie, 1932).

(٥٩) Dante, Inferno, IV, 311.

(٦٠) كثرت المبالغة فى رقة أفلاطون ، وما ذلك إلا أثر من آثار السراب الأفلاطونى ، ويتبين من بعض أقواله المتطرفة فى « الجمهورية » وفى « القوانين » أنه كان مستعداً للقسوة البالغة . وكانت رقته من ذلك النوع المريب الذى يروج له الدكتاتوريون .

(٦١) انظر الدراسة الممتازة التى قام بها :

Jeanne Croissant, Aristotle et les mystères (228 pp.; Liège Univerité de Liège, 1932) [Isis 34, 239 (1942-43)].

(٦٢) قارن كلام أينشتين الوارد فى مقدمتى (Introduction, vol. 3, p. v.)

(٦٣) يجد القارىء مناقشة ممتازة للغائية من وجهة نظر الكيمياء وعلم وظائف الأعضاء الحديث فى

Lawrence J. Henderson, The order of nature (240 pp.; Cambridge: Harvard University Press, 1917) [Isis 3, 152 (1920-21)].

« فالغائية — كما قال الفسيولوجى الألمانى ايرنست فيلهلم فون بروكه — سيدة لا يستطيع بيولوجى أن يعيش بدونها . ومع هذا فهو يستحى أن يظهر معها أمام الناس » .

Walter Bradford Cannon, The Way of an investigator (New York: Norton, 1945), p. 108 [Isis 36, 259 (1946)].

(٦٤) وللتوسع فى دراسة تصنيف العلم والمراجع ، انظر مقدمتى : Introduction, vol. 3, pp. 76-77.

(٦٥) يقول بوبر ((Popper)) فى كتابه : The Open Society,, vol. 2, p. 11

« العلم لا يرتقى ، بتجميع معارف فروعه كلها بالتدريج كما اعتقد أرسطو ، وإنما بطريقة أكثر جرأة من ذلك . إنه يرتقى بالأفكار الجريئة ، واقتراح نظريات جديدة غريبة (كالنظرية القائلة بأن الأرض ليست مسطحة أو أن « المساحة القياسية » غير مسطحة) ، وهدم النظريات القديمة . « هذا صحيح . غير أن الإنسان ينبغى أن يبدأ كما بدأ أرسطو ، والمنهج الموسوعى كان قابلا للكمال من وجوه كثيرة ، سواء من ناحية التعمق أو التوسع .

(٦٦) وبعبارة أخرى إن ماهية الشىء — فى رأى أرسطو — هى الطور الأخير الذى تتدرج نحوه . وهى تتحقق فى المستقبل البعيد ، فى حين أن « الصورة » أو « المثل » الأفلاطونى قد تحقق فى الماضى البعيد .

(٦٧) أعنى « ألفرد نورث هويتهد » ويستند جانب من شهرته بالفلسفة إلى تأليفه (بالاشتراك مع برتراند رسل) كتاب « المبادىء الرياضية » وما فيه من إبهام عميق .

Principia mathematica (1910 ff.) [Isis 8, 226-231 (1926); 10, 513 - 519 (1928)].